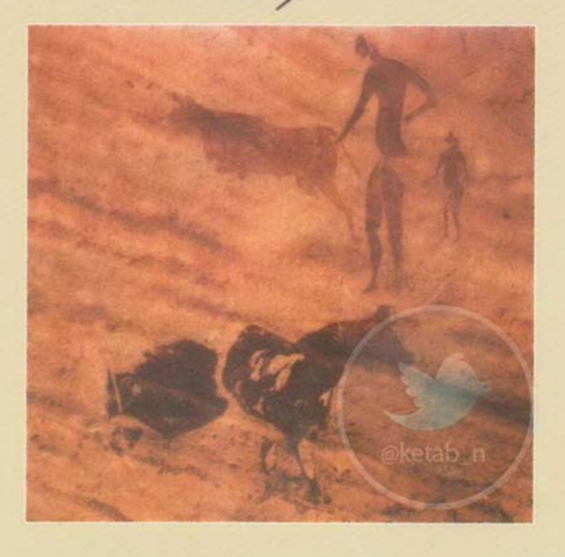
IBRAHIM AL-KONI

رواية
NOVEL

إبراهيم الكوني

مَراثِي أُوليس
(المُريد)






مَراثِي أُولِيس
(المُريد)

مرائي أوليس (المريد) / رواية عربيّة
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سيب ®
لوحة الغلاف :
لفنّاني ما قبل التاريخ ، الصحراء الكبرى ، الألفيّة التاسعة ق. م
الصفّ الضوئيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان
التنفيذ الطباعيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-612-8



إبراهيم الكوني

مراثي أوليس

(المريد)



(الثريّا كوكبة تتكوّن من شقيقات سبع: أولاهنّ اسمها الرجراجة وصاحبتها ذات العماد. ثالثتهنّ الملقّبة بالشفّافة، توسوس إلى أذن قرينتها ذات القرون. خامستهنّ الوضّاءة، تحتضن خلّتها صاحبة الكهانة. أمّا سابعتهنّ فتلك الحسناء التي ينعتها الصغار بالعمياء..

والثريا إذا استظهرت في زمن يستيقظ فيه الخلْق فما على الخليقة إلاّ أن تبحث لنفسها عن دثار يقيها شرّ القرّ. فإذا تستّرت الكوكبة وغابت عن الأنظار في زمن ما زال الخلْق فيه نيام، فما على الخليقة إلاّ أن تبحث لنفسها عن قربة ماء تقيها شر الحرّ...

والثريا تغترب زماناً يستغرق أربعين يوماً في كل مرّة، فتتبلبل خلال هذا الزمان الدنيا، ويفقد كل ما دبّ تحت قبّة السماء صوابه، ولا تعود الكائنات إلى رشدها، إلاّ بعد ظهور الكوكبة من جديد).

«من معتقدات الطوارق»

الجزء الأوّل

1 ـ العلامـــة

«وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده»

(التكوين 16:5)

تروي القبائل أنه وُلد في وادي الجنّ الواقع جنوب واحة «آدري»، شمال الوطن المسمّى في معجم الأجيال: «تينغرت». ولذلك لم يدهش أحداً النبأ الذي ردّدته الصحراء فيما بعد والذي يؤكّد إصابته بما أصابه من سوء في بطن الأم، في حين ينفي فريق آخر أن يكون المسّ الذي أصابه قد أصابه في جوف الأم مؤكّداً أن مصابه حدث في بطن الوادي، أي بعد خروجه من بطن الأم المباغت نتيجة سوء في الحساب كثيراً ما يذهب صغار قبائل الصحراء ضحيّته. لأن وادي «آوال» الرهيب لم يكن يوماً وادياً من وديان الإنس، ولكنه كان وطناً من أوطان الجنّ منذ بدء الخليقة. وقد اعتادت القبائل أن تستجير به من هجير الصيف في تلك المواسم التي يقلب فيها الصيف الحياة في «تينغرت العليا» إلى نار موقدة، فيفرّ أهل الصحراء إلى الوديان السفلى التي كان «آوال» أكثرها إغواء دائماً بسبب رحابة قيعانه، وثراء أعشابه، ووفرة مياهه التي ما تزال تجري فيه أنهاراً حتى اليوم.

والحقّ أن الفريق الثاني من الرواة الأكثر دهاء كثيراً ما لمّحوا في سيرهم إلى أسباب أخرى لتعلّق القوم بهذا الوادي فينفون أن يكون ثراء «آوال» سبباً في غرام القبائل به، ولكن السبب الحقيقي يكمن في

حنين أهل الصحراء إلى الجنّ أنفسهم الذين لم يكونوا لهم يوماً إلاّ أسلافاً. ويحتكمون إلى ملاحم القوم وأشعارهم ليبرهنوا على صحّة ما يروون. وهي ملاحم غنيّة حقّاً بالأشعار التي تتحدّث عن سلالات بعض القبائل التي تستعير أصولها من أهل الخفاء، وليست كل القبائل. وعلّه من المثير حقّاً أن يعتنق القوم يقيناً يقول أن قبائل الصحراء الأكثر أصالةً، والأسمى في سلّم النّبالة، هي الأجدر بالانتماء إلى سلالة الجنّ التي استوطنت «آوال» منذ انحسار المياه عن الأرض وبداية تكوّن اليابسة.

وقد أطلقت الألسن فيما مضى من أجيال اسم «آوال»[1] على الوادي بسبب تلك الهمهمات التي لا تنقطع والتي تُسمع في جنبات قيعانه، وتنبعث من فوهات كهوفه دون أن يتبدّى للقوم أصحابها. وهي محاورات كثيراً ما تتواصل في مجادلات حامية تتخلّلها قهقهات الاستحسان، أو صيحات الاستنكار سيّما في زوايا الوادي الأكثر خلوة، أو في سويعات الهزيع الأخير من الليل عندما يتسلّط على الصحراء السكون. وبرغم وضوح أصوات قوم الخفاء هؤلاء في مجادلاتهم أو منازعاتهم إلاّ أن أهل الصحراء أجمعوا على مرّ الأجيال أنهم لم يحدث أن تمكنوا من تمييز كلمة واحدة مما يقولون برغم وضوح أصواتهم الشديد، وبرغم أن كل من سمعهم أكّد أنهم إنما يتحدّثون بلسان أهل الصحراء لا بلسان الدُّخلاء.

وقد أرجع البعض سرّ هذا الغموض إلى اللسان الذي وإن كان

(1) آوال: الكلم، الثرثرة، الهمهمة (بلسان الطوارق).

في الهويّة لساناً واحداً مع لسان أهل الصحراء إلاّ أن رحلة الأزمان قد بلبلت الأخير وأصابته بالتغيير، فصار من العسير التمييز بينه وبين سلفه القديم.

ولكن دهاة الصحراء الذين يرجعون بنسبهم إلى سدنة معبد «هرو» في تاسيلي رأوا أن يرجعوا السبب إلى طلسم أكثر غموضاً عندما قالوا أن السّرّ ليس في اللسان ولكنه في الحجاب الذي يعمي بصيرة الإنسان فيعجز بالعين عن رؤية ما خفي عن العين، كما يعجز بالعقل عن إدراك ما لا يُدرك بالعقل. هذا العماء (عماء البصر وعماء البصيرة) هو الذي أدّى إلى القطيعة بين القبيلتين (قبيلة الخافية وقبيلة البادية) وجعل لغة كل فريق لغة مفقودة في لسان الفريق الآخر، كما رأى هؤلاء الكهنة الدهاة.

ويُقال أن فقدان اللسان هو الذي سبّب العداوة بين القبيلتين لا في ربوع الوادي المهيب وحده، ولكن في رحاب الصحراء كلّها. وملاحم الأوّلين البطولية حافلة بسير الصراعات بين القبيلتين إلى حدّ نشوب الحروب بينهما.

أمّا نزول الوادي فكان حدثاً محفوفاً بأشدّ الخطر إلى اليوم. ويقال أن جلّ الذين أُصيبوا بالمسّ وفقدوا نعمة العقل في صفوف قبيلة البادية إنّما نالوا هذا القصاص عند نزولهم الوادي إمّا لاستهتارهم بناموس الضيافة، أو لانتهاكهم حرم من حرمات الوادي كأضرحة الأوائل، أو نقوشهم على الجدران، أو النوم فوق رماد نيرانهم الزائلة، أو العبث بدماء ضحايا الحروب القبلية القديمة، دون التحصّن بالتمائم اللازمة أو قراءة التعاويذ الخفيّة.

والرجم بقطع الحجارة يعدّ في عرف الجنّ قصاصاً هيّناً في حق الخطاة والمستهترين إذا قورن بقصاص المسّ الذي استنزله هؤلاء القضاة الدهاة بحقّ الوليد الشقيّ كما تروي السِّيَر برغم تضارب الروايات في هذا الشأن.

ففي إحدى الروايات أن الوليد أصيب يوم بلغ من الأعوام ثلاثاً فخرج مقتفياً أثر أمّه التي ذهبت لاستجلاب الماء من البئر القديم، فهجع من فرط الإعياء على كوم رماد مسكون، ليخرج من هناك بعطب البدن الذي سبّبه المسّ من كف مارد حقود.

وفي رواية أخرى أن الأم هي التي هجعت على بركة دم قُتلت فيها بعض الأقوام غدراً من قبل قبائل صحراوية أخرى فظلّت تستصرخ الجنّ بأصوات عالية سمعها كل عابر تسنّى له أن يقضي ليلته بالجوار، فرأت قبائل الجنّ أن تثأر لهم، فأصابت الوليد وهو ما زال في بطن الأم جنيناً اقتصاصاً من الأم على استهانتها بأعراف الوادي وخرقها لناموس التحريم. هذا التحريم الذي جعل أهل الصحراء الشمالية يتجنّبون إنجاب ذريّتهم في قاع «آوال» بل ويحرّمون على أنفسهم معاشرة نساءهم طوال مواسم المقام في رحاب الوادي.

أمّا الرواية الثالثة فتؤكّد أن الوليد الشقيّ لم يُمسّ لا في بطن الأم، ولا في بطن الوادي، ولكنه استبدل بوليد من أولاد الجنّ من قبل أهل الخفاء المغرمين بأبناء وبنات الإنس لا للهفتهم المعروفة باتخاذهم أقراناً تنجب نساءهم ذريّةً من أصلابهم، أو قرينات ينجب رجالهم منهنّ نسلهم، ولكن ليقينهم الخفيّ بأن سلالة الإنسان تميمة حامية لا تضاهي فعاليتها في دنيا الخلاء تميمة أخرى، والفوز بوليد

من أولاد الإنس هبة تفوق الفوز بكنز من كنوز التّبر. ويبدو أن اليقين بصحّة هذه الرواية هو الذي جعل القوم يلقّبون الشقيّ بـ«سليل الجنّ». وهو لقب أضيف إلى ألقاب أخرى ألصقها به الصغار تعيّره بعطب الجسد، برغم أن الكبار الذين خبروا الدنيا وعرفوا أسرار الصحراء كانوا ينتهرونهم، لأنهم كانوا ينظرون إلى صاحب المسّ بإكبار خفيّ، لأنهم جرّبوا أن المسّ دائماً رسالة خفاء، وصاحبها منذور بأمر عسير سوف ينكشف للأغيار طال الزمان أم قصر، برغم تشكيك المشكّكين الذين لم يكونوا ليصدّقوا أن يكون العطب في البدن إشارةً إلى رسالة، أو علامة لبطولة لو لم يكذّبهم سلطان الخفاء مراراً، عندما سنّ في الصحراء ناموساً لا يتغيّر فيه مصير القوم إن لم يتغيّر ما بأنفسهم، ولا يتغيّر ما بأنفسهم إن لم يتغيّر ما بأجسادهم.

2 ـ وصايا مسقط الرأس

«أقدام الإنسان يجب أن تغوص في تراب وطنه، ولكن عينيه يجب أن تعانق العالم كلّه».

(سانتايانا)

استحقّت سيرة وادي الجنّ أن تتناقلها الأجيال منذ اليوم الذي صار فيه هذا الوطن مسقطاً لرأس السليل. ذلك أن القبائل لم تألف سليلاً يولد في بطن الوادي ويبقى على قيد الحياة. وإذا حدثت أعجوبة أبقت الممسوس على قيد الحياة فلا بدّ أن يدفع لعنة النسيان قرباناً بالمقابل. هذه اللعنة التي تذهب بالعقل وأطلقت عليها القبائل اسم «الجنون» المستعار أصلاً من اسم الجنّ.

أمّا أن يولد الوليد في قاع الوادي، ويُصاب إلى جانب ذلك ببليّة المسّ، ويبقى بعد ذلك على قيد الحياة دون أن يفقد كنز العقل، فهذا هو الاستثناء الذي لم تعرفه الصحراء، ولم يشهد له وادي «آوال» في تاريخه مثيلاً. وهي أعجوبة رأى فيها الكلّ حدثاً جليلاً برغم اختلافهم في تأويل حقيقتها. فبعض الدهاة رأى فيها خرقاً لناموس الصحراء، واعتبروها نذير شرّ. في حين فسّرها فريق آخر بالضّدّ، فقالوا أنها نذير بشارة لأن الوليد الذي يحيا يوم أراد له الخفاء أن يهلك، وحده الجدير بأن يفوز بلقب رسول. وحجّتهم في ذلك تعود إلى وصيّة قديمة توارثتها الأجيال تقول أن من أصابته يد أهل الخفاء فقد رأى الخفاء، ومن أبصر بعينيه الخفاء فلن يكتب له أن يعيش، فإن عاش

رغم ذلك فلا يحدث ذلك إلاّ لأمرٍ جلل سوف تفكّ طلسمه الأيّام. هذا الطلسم الذي يؤكد القوم أن الأقدار لم تكن لتدسّه في جوف إنسان لو لم تختر له المكان الذي صار في عرف القبائل مثوى جماعياً لا تنزله العشائر لتتعاشر وتتكاثر كبقية الأمكنة، ولكنها تنزله غصباً في مواسم المجاعات والجدب وأهوال الأصياف لتمتنع وتحجم وتقمع في أبدانها الأهواء والشهوات، لأن القوّة الخافية لم تعتد أن تحيي مخلوقاً في ذلك المكان الذي شاء الناموس أن يجعله ساحة هلاك لا ساحة حياة لو لم تختره لسرّ. لأن أمم الصحراء اعتادت أن تردّد وصية تقول أن الإنسان لا يولد في مكان اختارته له الأقدار مسقط رأس عبثاً، لأن سرّ الإنسان من سرّ المكان. ويوم امتدّت أنامل الصبايا لتقرع طبول الجلد الموسّمة بالتمائم، وانطلقت حناجرهن الشهيّة بلحون الشجن ابتهاجاً بسليل الوادي الذي ذهب في رحلة إلى دنيا الخفاء وعاد من وطن المجهول حيّاً، في ذلك اليوم الذي تغنّت فيه الصبايا بالأعجوبة، كانت الشاعرات قد ارتجلن أشعاراً لأول مرّة في مديح المكان المهيب الذي لم يفز من الشفاه يوماً بغير تعاويذ الخشية أو طلسمات التقيّة حتّى أن الكثيرين من عشّاق الغناء رأوا في هذه الأشعار فألاً للهدنة وقنطرة للثقة بين الفريقين المتعاديين منذ الأزل.

بعد تلك الأشعار بدأت القبائل تكتشف الوادي كأنها تنزله لأوّل مرّة، فرأت فيه وطناً لا يخلو من جمال، بل أرض لا تختلف عن صحراء «تينغرت»، أو «تاسيلي» أو «تادرارت» أو مساك صطفت، أو بحر الرمال العظيم الأوسط، أو بحر الرمال العظيم الغربي، أو بحر الرمال العظيم الأدنى، أو صحراء تينيري المتاخمة لبلدان الأدغال في

أقصى الجنوب. فبدأت الأقوام تستجلي رموزه، وتتغنّى بآثاره، وتقول أشعاراً شجيّةً في سيماء بهائه الذي لم يروه يوماً إلاّ بعبعاً وقبحاً.

واليقين أن القوم لم يلتفتوا لرموز وادي الحرام قبل أن تتسلّل الوسوسة إلى قلب السليل فزحف من خباء الأبوين ليقف على حقيقة الأمر بنفسه حتّى أن القرناء الذين عرفوه عن كثب نقلوا عنه أقوالاً تؤكد انتماءه بالنسب إلى رحم الصحراء لا إلى رحم أمّ اللحم والدّم، فكان العقلاء يعلّقون ضاحكين: «الشقيّ على حقّ. لأنه لم يولد يوم وُلد من بطن الأم كما وُلد كل أولاد الصحراء، ولكنه وُلد حقّاً يوم خرج وراء الأم فتوسّد في الطريق حجر الضريح الرهيب، وداس بقدمه على رماد الأوّلين المسكون، وغرس مرفقه في دم ضحايا المغدورين الذين قُتلوا يوماً غيلةً. إنه حقّاً سليل الحجر والرماد والدّم، لا سليل الأم!».

1 ـ وصيّة الحجر:

لقّنه الحجر سرًا منذ كانت الذاكرة فيه طلسماً مجبولاً بالنسيان. لقّنه الحجر سرّه منذ ذلك اليوم الذي توسّد فيه حجارة الضريح المهيب، فرأى ما لم يكن بوسع عينه أن تراه، وسمع ما لم يكن بوسع أذنه أن تسمعه، وأدرك ما لم يكن بوسع عقله أن يدركه، لأن وسوسة المسّ كانت في قلبه كلمة المجهول التي حوّلت الحجر لوح نبوءة.

كان الحجر نبوّته الأولى قبل أن يعرف حقيقة النبوءة، وقبل أن تسري فيه لهفة التوق إلى المعارف يوم زحف خارج الخباء لأوّل مرّة

ليتلقّى في رأسه حجراً استودعه غيبوبةً طويلة. غيبوبة أعادته إلى رحاب المسّ المجهول المجبول بطلسم النسيان فوجد عجوزاً ملثّماً بقناع جلد تسترسل لحيته البيضاء على صدره، يقف فوق رأسه ويتلو عليه وصيّةً مبهمةً محفورةً في لوح حجري صقيل وطويل مزبورة برموز غامضة عرف فيما بعد أنها أبجدية أهل الصحراء التي ابتدعها الدهاة القدماء ليجسدوا بها على ألواح الصلد تمائم تجيرهم من شرور خصوم الخفاء.

لم تكن الرموز المنقوشة على اللوح وحدها الغامضة، ولكن اللغة التي تحدّث بها الشيخ كانت أيضاً غامضة، ولا يدري عما إذا كان ذلك بسبب جهله بسرّ الكلم كلّه في ذلك العمر المبكّر بالدنيا، أم بسبب جهله بلسان القبيلة الأقدم الذي عرف فيما بعد أنه رطانة لا تختلف عن رطانات الجنّ في وادي الحرام. وبرغم ذلك كلّه، برغم حداثة العهد بالمهد، برغم الجهالة بأسرار الألسن وغموض الرطانات، وبرغم لعنة النسيان التي كانت منذ البدء للعقل وهقاً وللعنق قَدَراً، إلاّ أنه استطاع أن يستغفل القَدَر وينتزع من براثن النسيان كلمة واحدة ردّدها الشيخ الجليل مراراً فتذكّرها، وردّدها بينه وبين نفسه، حتى صارت له مع الأيام تميمةً، بل قَدَراً. كلمة لم يفهمها يوم احتفرها المجهول في قلبه، بل ولم يفهمها حقّ الفهم حتّى يوم ظنّ أنه فهمها، لأنها كانت كلمة بلا قاع. كلمة من تلك الكلمات التي نكتشف لها معنى آخر كلّما قطعنا في رحلة الدنيا شوطاً أبعد. نكتشف لها معنى أعمق، بل وأعظم شأناً، كلّما قطعنا في شوط العرفان شوطاً أبعد. كلمة من ذلك الطراز الذي يكبر معناه معنا إذا كبرنا، ويضمحل معناه

ويتدهور بتدهورنا، لأن كلمة «تيدت»[1] التي رتّلها كاهن الضريح في ذلك اليوم كأنه يتلو تميمة أو يلحّن أشعاراً، لم تكن كلمة تدل على معنى ككل الكلمات، ولكنها الكلمة التي تدلّ على الذات، على الهويّة، على الحقيقة، لا على حقيقة الصحراء، لا على حقيقة الدنيا، ولكن على حقيقته هو، حقيقته التي كان عليه أن يغترب طويلاً، ويشقى طويلاً، ويهلك مراراً، ليبعث من جديد مراراً، حتى يدرك أن «تيدت»، أن حقيقته المتسترّة في هذه الكلمة البسيطة بساطة الأغنية، ما هي إلاّ حقيقة الصحراء، ما هي إلاّ حقيقة دنياه أيضاً. ليس هذا فحسب، ولكنها حقيقة أبعد منالاً، لأن حقيقته الصغيرة المبثوثة في وشوشة «تيدت» هذه ليست حقيقة الدنيا وحسب، وليست حقيقته وحده، ولكنها حقيقة الخفاء أيضاً. حقيقة الخافية التي حيّر طلسمها الأجيال، وأشقى سرّها الملل والنحل، وأعجز أمرها الشعراء والكهنة وأهلَ الدنيا منذ انحسرت المياه عن وطن اسمه الأرض، ومنذ صارت اليابسة وطناً اسمه الصحراء.

وقد أصبح الحجر هاجساً منذ زمن المسّ هذا. فلا يرى نصباً إلاّ ورأى فيه الوصيّة محفورةً برموز الأبجدية الأولى. لا يراه حجراً مجرّداً، ولكنه يراه لوحاً بين يدي كاهن الأجيال الذي يتلو على رأسه وصيّة الأجيال المجهولة التي لم يفهم منها سوى كلمة «تيدت» التي صارت لرحلة حياته كلها برهاناً. يتبدّى له صاحب الضريح المهيب

---

(1) «تيدت»: كلمة بدئية تعني في لسان الطوارق: «الحقيقة»، وتعني في اللغة العبرية: «الشهادة»، وفي الأوغاريتية: «البرهان»، وفي العربية: «الذّات»، وكلها في النهاية بمثابة معنى واحد.

دوماً ملوّحاً بلوح الوصية. يتبدّى في اليقظة كما يتبدّى في المنام. يردّد رطانة طويلة من لوحه الحجري، ولكنه لم يفهم يوماً كلمة أخرى غير كلمة «تيدت».

صار له كاهن الأجيال مع الأيام دليل سبيل، كما صارت له كلمة «تيدت» أكثر من وصيّة. صارت له كلمة «تيدت» في رحلة الدنيا ديناً!

2 ـ وصيّة الرّماد:

بعد غياب كاهن الأجيال وجد نفسه إلى جوار امرأة ملفوفة بالسواد، توليه ظهرها وتغذّي بالحطب ناراً تشتعل تحت قدر من الفخار يقوم على حجارة أثافٍ ثلاثة. كانت تبدو في سوادها وصمتها وكبريائها كجنيّة من سلالات الخفاء، أوكاهنة من كاهنات العهد القديم. لم تكن سخيّة في تغذية نار الأثافي بالأحطاب. كانت تدس بين الحجارة عوداً واحداً في كل مرّة تخفت فيها جذوة النار، ثم تقتحمها برأس المِسْعر لتستفزّ الجمر وتؤجّج النار.

كانت كئيبة، تبدو في لفافتها السوداء كقطعة ظلماء. توليه بظهرها كأنها تتعمّد أن تخفي عنه وجهها. ولا ينسى كيف حاول أن يتبيّن سحنتها مدفوعاً بالفضول فأخفق: تنحّى جانباً فوجد أن واجهتها لم تختلف عن قفاها. تنحّى إلى الجانب الآخر فلم تختلف النتيجة. أرجع خيبته في الفوز إلى خفّة حركتها أو مرونة بدن مكّنتها من الاستدارة إلى الجانب الآخر كلّما حاول أن يدركها. لم يتساءل لماذا تحاول أن تخفي وجهها. لأن خشيته الخفيّة بأن تكون مخلوقة بلا وجه خنقت فيه أي سؤال آخر. حاول أن يجادلها ولكن عضلة اللسان لم تطعه. . جاهد

ليتكلّم ولكنه أخفق. استشعر العجز والإعياء فسمعها. سمعها تدمدم بلحن بعيد، غريب، لحن لم يسمع لحلاوته مثيلاً. لحن لا ينطلق من حنجرة، ولا يتردّد على لسان إنس. لحن يغنّيه المجهول وحده الذي دبّر الألحان وبثّ فيها سرّه وحنينه وجنونه. لحن خلود تكلّم بشجن الصحراوي الخالد وشجن أهل الصحراء في أجيالهم منذ هبّوا من المجهول ودبّوا في وطن الصحراء. ثم.. سكتت. تلاشى اللحن فوجد وجهه مغسولاً بالدمع. ساعتها استدارت. استدارت لتواجهه، لتستقبله بوجهها أخيراً. ولكنه لم يرَ في وجهها وجهاً. رأى القناع ولكنه لم يجد وراء القناع وجهاً. بل وجد وراء القناع خواء، هاوية، ظلمةً. ولكن يداً معروقةً، مكسوة بتجاعيد كلحاء شجر الطلح، ارتفعت في وجهه بالعطيّة. كانت تمسك بمسْعر النّار. في طرف المسعر تلظّت شعلة نارٍ ذهبية. ظلّت تتمايل يمنةً ويسرةً في إغواء. لم تكن تتمايل كما ظن في البداية، ولكنها ظلّت تتمدّد وتتمادى. تتمادى وتنمو وتتلوّى في الهواء حتى صارت حيّةً شبيهةً بسلالة بنات طبق. ازدادت في البدن مرونةً وجسارةً فسمع فحيحها الذي يذكّر بفحيح النار عندما تستمرىء لقمة الحطب. بعد قليل استحال المسعر كلّه إلى شعلة، إلى حيّة، فاختفت اليد القديمة، المعروقة، المكسوّة بلحاء الشجر. اختفت الكاهنة أيضاً، ولكن القدر استمرّ منتصباً فوق حجارة الأثافي وجذوة النار تومض تحته بحياء. ولكن...

ولكن شعلة النار ظلّت تناوشه معلّقةً أمام وجهه في الفراغ. لم تعد النار ناراً ولا المسعر مسعراً، ولكنهما التحما في جرم الحيّة التي مضت تتلوّى تلوّي النار وتزفر بفحيح النار. اقتربت حتّى لفحته

بالصّهد. ثم طوّقت عنقه لتنساب من هناك إلى صدره. أحسّ باللّهب فتفقّد صدره. ولكن بعد فوات الأوان، لأن الداهية كانت قد تسللت إلى قلبه فاستعر فيه الحريق. ساعتها سمع صوت النبوءة بوضوح: «لن يهدأ لسليل الإنس بال ما ظلّت نار الموقد في قلبه حيّةً تسعى!».

3 ـ وصيّة الدّم:

من المرفق المغروس في كتل الدّم اليابس شدّه رسول. كان صبيًّا لم يتجاوز من العمر العاشرة. رأسه متوّج بفروة شعر مصفّفة على هيئة عرف الديك. يرتدي جلباباً جلدياً فضفاضاً.

قاده من مرفقه المغمور في يبيس الدّم مدمدماً بلجلجة كالأغنية. لم يقطع به في الوادي شوطاً طويلاً حتّى وجد نفسه في مضارب قال له دليله الفتي أنها أخبية أسلاف. قالها دون أن يلتفت، ودون أن يتبيّن وجهه، ودون أن يتوقف عن همهمته الخفية.

كان الوقت ليلاً، والسكون طاغياً، سكون مريب توقفت فيه حتى الأنعام عن اجترار الكلأ. سكون ما لبث أن مزّقه النداء. نداء فجاءة مجبول بالفجيعة. فجيعة ليست ككل فجيعة لأنها لا تنوح على الفقد، ولكنها تستنكر الغيلة. بعد النداء الموجع انطلقت الأصوات، وعمّت البلبلة، وتزعزعت أركان الوادي بالهرج. مزيج اختلطت فيه صيحات الأعداء واستغاثات النساء، وبكاء الصغار، وأصوات رجال مغدورين زلزلتهم الفجاءة، فاستحثّوا الهمم علّهم يفلحون في إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

رأى رجالاً يشدّون على رؤوسهم خرقاً بعقالات مفتولة من أوبار

الدواب، يقتحمون المضارب، ويطعنون بالرماح والسيوف الرجال والنساء والأطفال. لم يرحموا حتى الرّضع الذين احتضنتهم أمهاتهن في صدورهن وهنّ يركضن هنا وهناك طلباً للنجاة. أحدهم طعن بضربة واحدة امرأة التقم وليدها ثديها فصرعهما معاً بحربته الفظيعة. أحد الأشدّاء وقف فوق فوهة البئر وشرع يلقي فيها بكل من وقعت عليه يده من أبناء القبيلة المنكوبة.

ركض في قلب المعمعة. استصرخ الأرض والسماء بأعلى صوت. ولكن لا الأرض تدخّلت، ولا السماء استجابت. رجم عتاة الأعادي بالحجارة ليستفزّهم، رجمهم لكي يطعنوه برماحهم، ليضعوا حدّاً للهول الذي يجري أمام عينيه، ولكنهم لم يطعنوه، ولم يلتفتوا لاستفزازه. لم يفعلوا ذلك رحمةً به، ولكن لأنهم لم يروه كما اكتشف فيما بعد عندما أتوا على ملحمتهم وبدأوا انسحابهم من الوادي وهم يقودون الغنائم.

انقطع دابر القبيلة في الوادي، ولكن الصبي ما لبث أن ظهر من جديد. شدّه من مرفقه وعبر به إلى الشطّ الآخر من الوادي. قاده دون أن ينبس. دمدم بلحنه المجهول كأن ما حدث لم يحدث. بل كأن ما حدث هو ما يجب أن يحدث. همّ بأن يتساءل، ولكن الدليل سبقه إلى الإجابة قائلاً: «ما حدث ما كان ليحدث لو لم يسبقه حدث آخر». همّ بأن يتساءل مرّة أخرى، ولكن الدليل أجابه بلهجة من سمع الاستفهام: «لم يكن الهمج ليستطيعوا قطع دابر القبيلة لو لم يقطعوا دابر بطل القبيلة قبل هجمتهم على الربوع مستعينين في ذلك بالمكيدة. إمضِ إن شئت أن تقف معي على السيرة!».

شدّه من مرفقه ليقطع به الوادي. بلغ به سفح الجبل. أوقفه فوق رأس جمع يتهامس. كانت وشوشتهم تفوح برائحة المكيدة. وكانت رؤوسهم المطوّقة بعقالات أوبار الدواب تتناطح. قال أحمقهم: «لا أدري كيف يمكن الإطاحة بمخلوقٍ لا يناله سوء الخلْق ما ظلّ يلامس الأرض بقدميه!» فأجابه أخبثهم: «ما تغتنمه التميمة تنتهكه الحيلة: سوف نستدرج الداهية إلى الكمين. نرمي بالحبل حول عنقه، وندفع به إلى الهاوية ليتدلّى من الجبل!». هلّلوا استحساناً قبل أن يتسلّلوا ليرابطوا للبطل العائد من عراء «تينغرت» إلى وطن القبيلة في الوادي. ألقوا بالوهق حول رقبته، ودفعوه إلى الهاوية في رمشة عين. أطلق الجبّار حشرجة رهيبة. تلوّى في الفضاء طويلاً باحثاً بقدميه عن بدن أمّه الأرض. ولكن هيهات. اقترب منه الدليل وهمس: «أرأيت؟ مصير بطل القبيلة كان نذير النهاية لقبيلة البطل. أنت شقي الآن لأنك مقطوع. بطل الأبطال المشنوق كان سلفك من سلالة الأم، والقبيلة كانت قبيلتك من جهة الأم». سكت الشبح زمناً. سكت وعندما رفع إليه بصره في عتمة الليل وجده مخلوقاً آخر. انقشع الولد وحلّ في بدنه صاحب وصيّة الحقيقة، كاهن الأجيال المقنّع برقعة الجلد. بيديه الموسمتين بفتلة العروق. انحنى عليه العجوز ليقول: «التّيه منذ اليوم قدرك يا مسكين، والانتقام سلاحك، فهل تعد ألاّ تنسى؟». لم يعرف بماذا يجيب. ولكن صوتاً مجهولاً دمدم في صدره رغماً عنه ليجيب باقتضاب بيقين، وحسم، وابتسار: «أعد!».

تحدّث الرواة عن وعد السليل كما تحدّثوا عن بقية الرؤى التي عرفتها القبائل في كل أصحاب المسّ، ولكن وحده أدرك أثناء عزلته

مع قطعان الجداء في السهول أن رسول المجهول العجوز لم يكن مخلوقاً أبدعته يد حمّى الغيبوبة، لأن الإنسان الذي حلّ عليه في الخلاء ضيفاً مراراً أثناء الرعي، وأسمعه الوصايا مراراً بعضلة اللسان لا بالإلهام، لم يكن ليكون شبحاً من سلالة الرؤيا.

3 ـ ذاكرة الوادي

«الأموات أحياء ما ظلّ في الدنيا أحياء يذكرونهم»

(أنريو)

يُروى أن الوادي في القديم كان بستاناً رحباً أخضر مفروشاً بضروب النبوت، تجري من تحته الأنهار بمياه سخيّة جدّاً. وقد رأى داهية الخفاء أن يجعل من سلف القبائل خليفة له على أمر الوادي عندما قرّر أن يهجر الأسافل ويتوارى عن الأنظار. ولكن السلف أساء التصرّف يوم أدخل إلى الوادي حسناء لم تشهد الصحراء لحسنها مثيلاً إلى حدّ أن كل كائنات الصخراء وقعت في عشقها.

وكان الطير يلتئم في أحراش البستان العتيد كلّما دبّت الحسناء في أرضه ليغنّي لها أغاني الشجون فيرقص الشجر وَجْداً ويتنفّس الهواء ريحاً تبدع في أنصاب الحجارة لحوناً. وكانت أم الأجيال (كما دعتها القبائل) تتباهى بعشق الكائنات جهاراً وتعيّر قرينها السلف بخيبته لعجزه عن الغناء كبقية المخلوقات. ويُقال أنها قالت أن الإخفاق في معاندة اللحون هو ما يعيب الرجل لا إخفاقه في معاندة الدنيا. وقد ورثت نساء الصحراء عن سلفتهن الشقية هذه الوصية وظللن يرددنها بلا حياء منذ ذلك العهد القديم إلى اليوم حتى انقلبت ركناً من أركان ناموس القوم المفقود «آنهي». وقد حاول القرين أن يحدّ من غلواء كبريائها فحاججها بوصايا الناموس الضائع التي تقول أن حُسن البدن

ككل شيء تبدّى ظاهر باطنه خواء، كما كلّ شيء تخفّى روحه كنز باطنه امتلاء. ولكن هيهات أن تردع وصايا الناموس أنثى رأت يوماً في مرآة الماء حسن وجهها، ثم سمعته أغنيةً شجيّةً في لحون الكائنات كلّها. هذا الاستكبار كان علّة الرهان الذي أدّى إلى الدنس، فصار الدنس سبب تحريم الوادي على السلالة فيما بعد.

فقد نقل الطير نبأ بهاء الحسناء إلى أركان الدنيا الأربعة. وكان من نتيجة ذلك أن نزل أرض الوادي الداهية الملقّب في سير القوم بـ«وانتهيط»[1] اللئيم الذي أقسم أن ينال أم الأجيال نكايةً في عدوّه القديم صاحب البستان الملقب في لسان الأجيال باسم: «داهية الخفاء».

وقد ارتدى هذا المكابر الرجيم أبهى حلله، ودلّك وجهه بأنفس المراهم، ودهن جلده الكريه بأحلى الطيوب، ثم خرج يتسكع عبر الوادي بمحاذاة النهر الذي يخترق قاع البستان القديم. وقد التقى القرينين عند مدخل الأحراش العامرة بصنوف الفاكهة وألوان الأزاهير، فغزا بروائحه أنف المرأة التي لم تمتلك نفسها فسقطت مغشياً عليها قبل أن يقع عليها بصره. وعندما احتال القرين لمداواتها من داء الغيبوبة وأبصرت «وانتهيط» بطلعته البهيّة يقف فوق رأسها أغمي عليها كرّةً أخرى. وعندما استيقظت من غيبتها أقسمت بينها وبين نفسها أن تناله أيضاً.

وقد تعمّدت بعد ذلك أن تثني على حسن الضيف لتُسمع القرين

---

(1) وانتهيط: صاحب الأتان (بلسان الطوارق).

وتستثير غيرته. وقد استجاب المسكين للتحدّي مرّة فقال لها أن الغريب سوف لن يكتب له أن يفوز بها لأنها أبعد له من نجوم السماء ما ظلّ لها هو أقرب لها من حبل الوريد. ولكن طيشها وإعجابها بنفسها دفعها إلى القول بأنها تستطيع أن تكون من نصيب الغريب لو شاءت حتّى لو كان قربه منها قرب الإنسان من حبل الوريد.

قبل القرين الأبله التحدّي، لأنه لم يدرِ حتى ذلك الحين أن لا حيلة تجدي مع المرأة إذا قررت كيداً. وبدل أن يتخذ تدابير الحيطة سخر منها قائلاً أنه لا يدري بأي أعجوبة ستكسب الرهان إذا كان يلازمها كظلّها ولا همّ بوسعه أن يشغله عنها غمضة واحدة، فتوعّدته بالحُجّة ووعدت أن تأتيه قريباً بالعلامة. ويبدو أن الحسناء كانت تتقن لغة الإيماء مثلها مثل كل حسناء فلم يدرِ القرين كيف أشارت القرينة للرجيم ليأتي خبائهما ليلاً لينال منها وطره. ولم يكن ليصدّق لو لم تقدّم له القرينة في الصباح ماء الصّلب يترجرج في كفّها علامة العناق فاستعجب واستفهم كيف تمّ لها ذلك فأجابت بأنها لم تأتِ فعلاً عجباً، ولم تفعل إلاّ أن أخرجت للغريم عجيزتها من وراء الخباء عندما غطّ هو في النوم العميق.

وهكذا استطاعت الحسناء أن تدنّس بفعلتها الشنعاء حرم الوادي، فأغضبت داهية الخفاء الذي انتقل له الخبر بلسان الطير، فما كان منه إلاّ أن أصدر حكماً يقضي على القرينين بالخروج من الوادي والذهاب إلى المنفى في صحراء «تينغرت» العليا.

منذ ذلك العهد القديم قِدَم الصحراء صار وادي «آوال» وطناً لسلالة أهل الخفاء وحدهم، قد تنزلها سلالة أهل الصحراء طلباً للكلأ

أو بحثاً عن الظلّ أو الماء، ولكن قصاص الموت صار قدر كل من سوّلت له نفسه أن يقترب من امرأته في حرم الوادي لينجب منها ذريّةً. وقد نصّب سلطان الوادي على الأخلاف أعتى عتاة الجنّ ليشرفوا على تنفيذ الوصيّة وينزلوا العقاب بالخطاة. وكان بإمكان الذريّة أن تقبل المصاب وتحتمل القصاص لو لم تتصحّر الصحراء ويعم فيها الجدب في الأجيال التي تلت زمان الطّرد، فوجدت الخليقة نفسها تتشبّث بالبستان السخيّ وتستعطف داهية الخفاء بنحر القرابين. ولكن الداهية الخفيّ لم يستجب. بل سلّط عليهم ثعابين فظيعة لتطردهم من الوادي. كانت هذه الزواحف المميتة تخرج من كهوف الأجبال المحيطة بالوادي وتغير على نجوع القوم لتبتلع صغارهم وتفتك بكبارهم. وكانت فصيلة أخرى من هذه الوحوش تتخفّى في قمم الأشجار لتسقط على رؤوس ضحاياها سقوط الصواعق في مواسم البروق، فتلتف حول رقابها ولا تتركها إلاّ جثثاً هامدة.

وبدل أن يفرّ الأشقياء وينجوا بجلودهم من هذا الشرّ جمعوا شملهم وقرروا المقاومة. أعدّوا خططاً وبدأوا حرباً ضد الزواحف الرهيبة استمرّت بحساب الزمان أعواماً. اصطادوا الأفاعي بمختلف الحيل والأفخاخ وجعلوا من أبدانها الكريهة طعاماً لهم بعد أن كانوا هم طعاماً لها، ولم يتوقفوا حتى أبادوها وقطعوا دابرها من ربوع الوادي.

ضرب داهية الخافية كفًا بكفّ وفكّر في حيلة جديدة لإخراج سلالة العصيان من دياره فسلّط عليهم الجراد هذه المرّة. أغارت هذه الحشرات على البستان في أسراب كثيفة كثافة الغيم في فصل الشتاء

وبدأت تلتهم الحشيش واليبيس على حدّ سواء. قضت على البستان في زمن قصير، ثم تولّت أمر الحجارة أيضاً بعد أن فرغت من اليبيس، فلحستها حتّى ابيضّت وبان منها النخاع.

رأى صاحب البستان الخراب بعينيه لأوّل مرّة فاستولى عليه الفزع لأنه لم يتخيّل أن يكون مرآه بشعاً إلى هذا الحدّ، فأوقف تدفّق الجراد واستنزل على الوادي أمطاراً استمرّت شهوراً كي يعيد الحياة إلى بستانه الزائل. ولكن باله لم يهدأ لأنه فكّر في حيلة أخرى لإخراج سلالة الدنس من ربوع البستان، فاهتدى إلى أعوانه الجنّ. سلّط عليهم جند الخفاء يرجمونهم بالحجارة لليالٍ وليالٍ. كان وابل الحجارة ينزل على رؤوس القوم كل ليلة نزول المطر، فتبلبلت النجوع في البداية، وأسقط في يد دهاتها لأنهم لم يألفوا خوض الحروب مع أعداء قد يسمعونهم بالأذن، ولكنهم لا يرونهم بالعين، فحثّوا القوم على الصمود، وتشاوروا مع السحرة. دامت المشاورات طويلاً. ولكنهم أفلحوا في النهاية للتوصل إلى ترياق يحميهم من هجمات أعداء الخفاء. اختلق السحرة التمائم لأول مرة في تاريخ الصحراء فسحبوا البساط من تحت الأمّة الخفيّة.

فقَد صاحب الأمر صوابه واستدعى دهاة الجنّ وحكماء الخفاء جميعاً واجتمع بهم طويلاً. ويُقال أن في هذا الاجتماع تقرّر مصير القبيلة الشقية في تلك الساعة التي قام فيها أحد أقزام الجنّ الدهاة وأشار فيها على صاحب البستان بالخلاص قائلاً: «فليعلم مولاي أن لسليل الإنسان لا غالب إلاّ سليل الإنسان. ولن ينجو الوادي من شرّ الإنس إن لم يسلّط عليهم مولانا سلالة إنس!».

ارتفعت في المجلس صيحات الاستحسان، واستعجب حكماء الخفاء كيف فاتتهم هذه الحقيقة البسيطة وهم الذين ردّدوا دائماً أن دواء الدّاء إنما يتخبأ في صلب الدّاء، كما عرفوا أيضاً أن التداوي من الهلاك لا يتحقّق إلاّ بطلب الهلاك. بعدها بعث صاحب الأمر بلفيف من رجال الجنّ رسل دسائس لإذكاء نار الفتنة في صفوف الإنس. أخذ دهاة الجنّ معهم امرأةً لم يشهد الوادي لحسنها مثيلا وأدخلوها نجع القبيلة خلسةً فقام أخٌ وقتل أخاه بسببها منذ أوّل يوم. ولم يمض من الزمن وقت طويل حتّى عمّ الشقاق أركان العشائر، وتنابز الأكابر فيما بينهم بالألقاب، بل ورفعوا في وجوه بعضهم البعض الحراب والسيوف، وسالت في ربوع القبيلة دماء كثيرة.

تشتّت شمل القبيلة لأوّل مرّة، وتمزّقت العشائر إلى قبائل، فحقّقت الفتنة في زمن قصير ما لم تحقّقه بلايا الخفاء أو زواحف الصحراء في دهور. وكان يمكن أن يهون المصاب لو توقّف السوء عند حدّ الشتات. ولكن التيه في أرباع الأرض ما لبث أن أجّج العداوات بين أبناء ملّة كانت في الأصل قبيلة واحدة ترجع بنسبها إلى سلف واحد، فأغارت القبائل على بعضها البعض في حملات نهب وسلب وتخريب. وعرف الناس هولاً لم يعرفوه لا على يد الجنّ زمن الحروب الأولى، ولا بفعل الحيّات أو الثعابين، ولا ببليّة الجراد التي أتت على الحشيش واليبيس في بطن الوادي.

لم تعرف القبائل النهب والتخريب وحسب، ولكنها رأت صنوفاً من انتقام الإنسان من أخيه الإنسان تقشعر لها الأبدان وتعجز عن روايتها عضلة اللّسان. وقد بلغت صنوف الثأر هذه من البشاعة حدًّا

أجبر صاحب الوادي على التدخّل مراراً لوضع حدّ لها بوسائط أعوانه الجنّ. واعترف بينه وبين نفسه للقزم الذي ابتدع الحيلة بدهاء فاق في قسوته كل حدّ.

وما زالت أناشيد الأجيال وأشعار البطولات تتردّد على ألسنة القبائل إلى اليوم لتروي ذلك التاريخ الدموي الذي عاشته السلالة منذ شرّدتها حروب الذريّة الواحدة، فوجدت نفسها تتسلّق الأجبال، وتهيم في الشعاب المؤدية إلى أعالي «تينغرت» بعد أن غذّت مياه قيعان الوادي بدماء الأسلاف، وأثرت تربانه بجماجم الموتى عبر دهور ودهور، فلم يملك هؤلاء الذين هجعوا إلاّ أن يستصرخوا الأحياء تعبيراً عن وجع الغدر لا وجع الهلاك، ويستثيروا العابرين للانتقام باستغاثات موجعة ما زالت تُسمع في بطن الوادي إلى اليوم.

وبرغم المحن التي عاشها الوادي إلاّ أنه شهد في تاريخه عهود رخاء أيضاً. ويرجع الفضل في إرساء دعائم هذا الرخاء إلى هباء التّبر الذي كانت بطون الوادي لكنوزه مستودعاً ثريّاً دأب القوم على استخراجه ومقايضته لأصحاب القوافل مقابل أندر السّلع. وتروي الأجيال في السِّيَر أن العراك بين ملّة الإنس وملّة الجنّ لم ينشب إلاّ بسبب هذه الكنوز. لأن سلالة الوادي توارثت وصيّة قديمة تحذّر أهل الإنس من التعامل بهذا المعدن لأنه كان حكراً على سلالة الجنّ منذ الأزل. وقد ورد في متون الناموس المفقود «آنهي» أن السكينة ستندثر من النفوس، والبلبلة سوف تعمّ في ذلك اليوم الذي ينتصر فيه الإغواء ويبدأ الناس التعامل بالمعدن الممسوس. ويبدو أن استخراج الذهب قد جلب على الوادي اللعنة حقًّا، لأن أوار الفتنة بين الفريقين (أهل

الخفاء وأهل الخلاء) قد تزامن مع بلوغ حمّى البحث عن الكنوز ذروتها.

وبرغم ذلك فإن لا أحد ينكر أن اكتشاف هذا المعدن في ربوع الوادي قد جذب قوافل الأمم وحقّق للناس رخاء لم يعرفوا له مثيلاً طوال تاريخهم الطويل. وحتّى عندما تبدّل الحال وتدهور مخزون التّبر في أحضان الوادي وتضعضعت حركة القوافل تبعاً لذلك، فإن الدهاة ما لبثوا أن اكتشفوا في مصبّات الوادي الشمالية كنزاً لا يقل خطورة عن معدن التّبر وهو الملح! فما كان من القوافل إلاّ أن عادت أدراجها لتحصل على الملح النفيس وتدفع مقابله ذات العملة (أي التّبر) التي كانت للتجّار بالأمس أغلى عملة!

ولكن كنوز الملح نضبت يوماً أيضاً كما اعتادت أن تنضب كل الكنوز. وكان على أهل الوادي أن ينتظروا طويلاً كي يكتشفوا يوماً ضرباً آخر من ضروب الكنوز، لأن الأجيال قد عرفت منذ القدم أن لكل زمان كنزه، كما عرفت منذ القدم أيضاً أن لكل جيل من الأجيال عُزْفه.

4 ـ الأرباب

«عندما أقبل وفد من إحدى مدن اليونان لزيارة هيراقليط، ووجدوه يجلس إلى موقد النار يتدفّأ تردّدوا في الدخول فقال لهم مشجّعاً: تقدّموا، تقدّموا! ألا ترون أن في ديارنا أيضاً يوجد آلهة؟».

(ديوجين اللائرتي)

إذا كان جدّ سليل المسّ من جهة الأم قد احترف البطولة وتزعّم حملات صدّ الدخلاء، حسب ما يُروى، فإن جد السليل من جهة الأب قد فعل الضدّ عندما آثر التسليم وزهد في بطولات رأتها كل القبائل برهاناً على الرجولة ودليلاً على فروسية لم تملّ الصبايا من التغنّي بها في لحونهنّ، كما مجّدها الشعراء في ملاحم كانت دائماً ناموس الأجيال.

ويقال أن الجدّ من جهة الأب لم يختر التخلّي عن الدنيا عن طيب خاطر، ولكن تلبيةً لرؤيا رآها يوماً فاستجاب للنداء واعتكف في غار ربّ الأسلاف «هرو» بالجبل المطلّ على الوادي المهيب المسمّى بذات الإسم في ربوع «تاسيلي». وهو ذلك الاسم الجليل الذي استعارت منه القبيلة التي انتمت إليها هذه السلالة العريقة اسمها المعروف بـ«إمي هرو»، أي «أهل هرو» الذين ارتبط اسمهم بإله الأقدمين هذا، لا لأنهم أوّل من عبده في الوطن الصحراوي كلّه وحسب، ولكن لأنهم أوّل من أقام له معبداً في الصحراء، وقام من ثمّ بخدمة هذا المعبد. من هناك، من هذا الكيان البدئي المحفور في صلد المغاور المكابرة في وديان تاسيلي، وضعت تلك السلالة حجر

الأساس لأقدم معبد لأقدم الأرباب على اليابسة قبل أن تكتشف بقيّة أمم الأرض ربًا، وقبل أن تعرف القبائل عبادةً أو عُبّاداً.

ويُروى أن الإله هو الذي ألهم الأخيار كي يتخذوا له من هذا الوادي مقاماً لا لسموّ جباله التي تحاصر قيعانه من الجانبين لتجعله شبيهاً بأمنع الحصون، ولا لجماله الفريد الذي حالفته الحظوظ ونزله يوماً ليدرك أن الوادي ليس وادياً ككل الأودية في الصحراء، ولكنه مكان من ذلك الطراز الذي اختارته الخافية لتستودعه سرّها من دون الأمكنة جميعاً، فتستولي في رحابه على القلب سكينة غامضة كأنها تستعير غموضها من غموض الوادي نفسه إلى حدّ ينسى فيه الزائر هويّته فلا يدري من أين جاء وإلى أين يذهب.

وتروي السِّير الأولى كيف دبّر «هرو» أوّل ما دبّر ناموس كل الأشياء التي احتلّت حيّزاً بين رقعة اليابسة وقبّة السماء. وهو الناموس الذي صار أصلاً لكل النواميس التي سُمّيت بلسان الأجيال فيما بعد «قَدَراً».

ثمّ راق له يوماً أن يتنكّر في جرم داهية الخفاء فتولّى أمر خليقة الوادي الحرام ليدبّر للناس شريعة تقيم الحدود بينهم، فأطلقت الأجيال على هذه الشرائع اسم «العرف» تالياً.

ويؤكّد الدهاة وأهل الحكمة أن «وانتهيط» اللئيم كان رسوله الحميم الذي أوكل له كل أمر جليل إلى أن جاء اليوم الذي بعثه رسولاً ليبشّر سليل الأوّلين بنبأ الخلود فتلكأ اللئيم في السبيل لأن الحسد نهشه وتكلّم في قلبه بلغة الوسواس فنوى بالرسالة شرّاً. وبدل

أن ينقل الوصية إلى سليل الإنسان بشارة خلود قلب حقيقتها رأساً على عقب قائلاً أن صاحب الحول والقوّة بعثه رسولاً لكي يخبر سليله المدلّل برسالة تقول: «من باطل جئت، أيها الشقيّ، وإلى باطل تعود، وما أجدرك، أيها الإنسان، بألاّ تجد لنفسك وجوداً في هذا الوجود». وكان من نتيجة هذا المنكر أن صار الإنسان البائس ميّتاً منذ ذلك اليوم بالوسوسة قبل أن يموت بالأجل. وقد سمع صاحب الأمر عويل الإنسان، لأن روحه المسكينة كانت بين يديه برغم ابتعاده عنه بالجسد، فاستنفر ليستوضح الأمر، فسمع النبوءة التي تحوّلت على لسان «وانتهيط» إلى أكذوبة. فما كان منه إلاّ أن استنزل عليه لعنته، وطرده من حرمه، بعد أن نعته باللؤم، فصار اللؤم لهذا الدّعيّ مع الأيام لقباً، كما صار له الداهية اسماً.

ولكن الداهية ساق في تبرئة ساحته حججاً أقنعت أمماً كثيرة. قال من ضمن ما قال أن ممات الإنسان أفضل من ميلاد الإنسان، لأن بالميلاد تبتدىء محنة الإنسان، ولكن بالممات تنتهي محنة الإنسان.

تكلّم فقال أيضاً أنه سيقود القبائل إلى الحرية بتميمة اسمها العبور، وما على أجيال الخليقة إلاّ أن تتبعه إذا شاءت الخلاص، لأن الحرية بالعبور هي البديل الوحيد للخلود المزعوم. ثم بدأ حملة ماكرة وعنيدة لإعلاء شأن رسالته في ربوع القبيلة داعياً الأتباع للتحرر من وزر المكان والانطلاق إلى جهات الصحراء الأربع. وقد سار وراءه خلق كثير، ومع تدفق الأيام أفلح اللئيم في كسب المريدين وجمع الأتباع حتى صاروا جيوشاً جرارة تفوق عدداً وعدّة فرق الأخيار التي اختارت السكينة وآثرت الانقطاع زهداً في حطام الدنيا. وقد استطاعت

دعوته أن تستولي على عقول ضعاف النفوس إلى حدّ أنها شكّلت في النهاية خطراً على ناموس الإله «هرو» الذي أطلقت عليه الأجيال اسم «القدَر»، ثم تمادت أكثر فهدّدت الشرائع المتفرعة عنه والتي سنّها الرب يوم تسلل إلى أرض الوادي متنكّراً في جرم داهية الخفاء ليساعد المخلوقات الشقية على احتمال وزر الحياة الدنيا.

وهكذا بدأت حملة التشكيك التي زرعت الفتنة في ربوع أهل الصحراء وزعزعت أركان العلاقات بين القبائل فنشبت بينها الحروب، وسفكت الدماء، وعمّت المظالم، وتعرّضت الدنيا لخطر الفناء، فاضطرّ الربّ هرو أن يتدخّل فاحتال ليعتقل خلّه القديم وحشره في القمقم زماناً استغرق بحساب القدمة دهوراً. هدأت الأحوال، وهنأ الناس وقتاً لم يدم طويلاً. لأن الخلق ما لبثوا أن عانوا من داء الوحشة المميتة الناتجة عن الاسترخاء. اكتشف الدهاة أن رسالة الداهية المحشور في القمقم لم تكن بليّة البلايا كما تصوّر القوم يوماً، ولكن عمله كان حافلاً باللّهو. أجل، أجل. اللّهو. اكتشفوا أن اللّهو قرين حميم لأعجوبة الحياة، ولا حقيقة لهذه الهبة بدون هذا اللغز المبثوث في اللّهو.

بدأ الناس يهلكون بسبب السأم، فارتفعت الأصوات تنادي بعودة السجين المعتقل في جوف القمقم. وكي يضمنوا استجابة الربّ لندائهم ابتدعوا لحون الحنين لأوّل مرّة. كان دهاة الكهنة هم أوّل من اهتدى إلى هذه الحيلة لأنهم لاحظوا أن لا شيء يطرب الإله ويغمر قلبه بالمحبّة واللّين مثل لحن الشجن.

وقد أبدعوا في ترويض هذه اللحون إلى حدّ كادوا فيه يبيدون أبناء السلالة قبل أن يفلحوا في استرضاء قلب الإله بألحانهم. ذلك أن

أهل الحلم وصحبان المسّ في القبيلة كانوا يتزعزعون بألحان الإله ويرتجّون حتى يسقطوا مغشياً عليهم. وعندما يستيقظون تنتابهم نوبات وجد تستمرّ الأيام والأسابيع ولا يستشفي بعضهم منها إلاّ بالاستماع إلى المزيد من اللحون. أمّا البعض الآخر الذي لا يرتوي بالغناء فكان مصيره الجنون. إذْ يندفع هؤلاء عندما يعجزهم الاستشفاء إلى أتون النار أو إلى هاوية الأجبال، أو الارتماء على أنصال السيوف مؤثرين أن يقضوا النّحب بأيديهم على أن يستمرّوا في معاندة أوجاع الحنين الذي تستفزّه لحون الدهاة المكرّسة لتمجيد الإله. وهي تلك الألحان التي سنّها دهاة الحكمة الأوائل في أنساق كبرى ثلاثة توارثتها أمم الصحراء من جيل لجيل أوّلها ذلك النسق المسمّى في لغة البدايات: «أساهغ»، وفي لهجات قبائل أخرى: «أساهو»، وتسقط ألسنة أخرى حرف الهاء ليصبح الإسم: «أساو»، وهو ما يعني بلسان الأقدمين: «روح الدنيا» صفةً من صفات رب الأرباب «هرو»، وشهادة إكبار من المخلوقات لشأنه، مقارنين بهذا النعت بينه وبين حلف الأنجم السماوية الثلاثة التي لا تغترب عن فلكها ولا تحيد.

والنّسق الملحون الثاني المسمّى «آليون» الذي يعني في معجم الأوّلين «ميلاد الإله». وهو ترياق جرّب القوم نفعه لمداواة علل الروح وأوجاع النفوس كما جرّبه القوم لمداواة أسقام الأبدان أيضاً بسبب من عذوبته الموجعة في التغنّي بمآثر من أبدع الدّاء، ثمّ أبدع لكل داء دواء.

أمّا اللحن الثالث فورثته الأمم في تميمة تقول: «هلي ـ هلي ـ وأنين ـ إيّن» التي تعني في معجم الأوائل: «إلهي إلهي الواحد الأحد» تعبيراً من الخليقة عن امتنانها لخالق الخليقة جزاء هبة الخلق.

وقد أحكم الحكماء شريعة الغناء في الصحراء بقيد هذه الأنساق الثلاثة فصارت ناموس الأشعار الصحراوية كلها، سواء أكانت للتعبير عن الحنين إلى أوطان، أو للشكوى من وساوس النفوس، أو للتغنّي بعشق الحسان، أو لمديح صاحب البطولة، أو لذمّ أي فعل خسّيس.

ويُقال أن حكماء القبائل يوم التأموا ووضعوا ناموس الأنساق هذا لم يكتفوا ببثّ الألحان بصنوف الوجع خشية الفناء، ولكنّهم شحنوا الأشعار بحقيقة الحياة التي جرّبوا أنها لا تستقيم بمشيئة القطب الواحد حتى لو كان قطب صاحب الأقطاب كلّها، لأن سعادة الإنسان فيها لا تكتمل إلاّ بنصيب من الشقاء. وهذا الشقاء الممزوج باللّذة سرّ يتخفّى في الجري وراء طريدة اسمها اللّهو، وهي طريدة وإن كانت من اختلاق رسول الزور إلاّ أنها قضت على خواء الدنيا ومنحت سليل الصحراء عزاء يبدّد السأم.

وبرغم أن البعض رأى في رسالة الأشعار هذه تطاولاً على مشيئة «هرو»، بل وتجديفاً في حقّ صاحب الحقّ، إلاّ أن الربّ ما لبث أن استجاب للنداء عندما حرّر «وانتهيط» من معقله، وتركه يسعى بين أهل الصحراء ليستدرجهم إلى ديانة الحرية (كما يسمّيها) من جديد، فسارت خلفه الجموع أفواجاً لا فهماً لحقيقة القطب الذي لا يستقيم إلاّ بوجود قطب آخر مضادّ كما ذهب دهاة القبائل، ولا طلباً للحريّة أيضاً التي لم تدرك طوائف الدهماء حقيقتها يوماً، ولكن إشباعاً لشهوة الفضول، وسعياً وراء أحجية اللّهو التي وإن لم تحقق لهم حلم السعادة، إلاّ أنها ظلّت في الرحلة تسلّيهم وتلهيهم عن أنفسهم.

5 ـ السَّلف

«أولئك الذين لا يتباهون بما حقّقه أسلافهم الأبعد، لن يحقّقوا أي شيء يستطيع أن يتباهى به أخلافهم الأبعد».

(ماكوليه)

سلف سليل المسّ صار، كما يُروى، سادنا من سدنة معبد «هرو» في تاسيلي بعد أن كان ركناً من أركان مجمع الكهنة الذين وضعوا ناموس اللحون الإلهية الأولى، ثم ساهموا في تأويل بعض الشرائع التي وردت في وصايا الناموس الضائع «آنهي» والتي سطّرها الإله عندما اعتنق جرم داهية الخفاء في وادي «آوال» ووضع حجر الأساس للأنساق التي رسمت الحدود في العلاقات بين أبناء السلالة الواحدة. ويُقال أن السلف عاش في غار وادي «هرو» وحيداً إلى أن بلغ من العمر عتيّاً فاكتشف الحاجة إلى إنجاب الذريّة قبل أن يفوت الأوان، فنزل الوادي مصمّماً أن يتخذ امرأةً من أوّل أنثى تظهر له في حضيض الدنيا. كان زماناً قاسياً ذاك الذي نزل فيه كاهن المعبد منعت فيه السماء عن الأرض ماءها فأجدبت الصحراء وتعرّت اليابسة من النّبوت، فهاجرت الأنام بأنعامها لتحتمي بوادي الجنّ في الشمال كما اعتادت أن تفعل في مثل هذه الأحوال. فلم يبقى في صحراء الجنوب سوى سلالة أهل الخفاء يتسكعون في الوديان، ويثرثرون بهمهماتهم الخفية في سفوح الجبال المجاورة للوادي المقدّس. تسكّع السلف في أحضان واديه زمناً، ثم اجتازه لزيارة الأودية المجاورة، ولكنه لم يعثر

على أثر لنجوع الإنس فأدرك أن الأوان قد فات والزوال قد حلّ فيئس وركع ليقبّل أرض الإله القديم. ثم ترنّم باللحن الثالث في سلسلة اللحوة المقدسة الثلاثة وأعقبه بنداء يقول: «لا نتوسل إليك، يا رب الأرباب، لتمدّ لنا في العمر كما يفعل الحمقى، ولكنّا نرجو أن تميتنا عاجلاً شرط أن تحيينا في ذرّيتنا آجلاً، لأن ما ألهانا عن زرع النسل في الزمن الأوّل ليس الجري وراء وعود ملعونك «وانتهيط»، ولكن الوفاء لحرمك، والاعتصام بسدّتك، هو ما منعنا أن نفعل ما يجب أن يفعله الإنسان كما قضى ناموسك».

لم يكمل الكاهن صلاته حتّى تبدّت في الأفق صبيّة حسناء تهش قطيعاً ظنّه العابد في البداية أغناماً، ولكنه اكتشف بعد قليل أنه قطيع من أنعام «الودّان» المقدّس فأدرك في الحال أن الصبيّة الحسناء ليست صبية من سلالة الإنس، ولكنها فتاة من ذريّة الجنّ، لأن «الودّان» سلالة أنعام لا تلتئم في قطعان، ولا تستسلم للرعي في قطيع إلاّ لسلالة الجان.

أخذ السلف حسناء الجنّ قرينةً فأنجب منها ولداً وحيداً قبل أن يستولي عليه ذلك الحنين المجهول الذي لا يمهل صاحبه طويلاً والذي أورثه لذرّيته كلّها من بعده، فصار لها بين عشائر الصحراء علامة مميزة إلى الأبد، فهجع في ضريح مهيب فوق الجبل. أمّا الولد فربّته أمّه الجنيّة، ولكنها رأته للدنيا (دنيا الخفاء ودنيا الخلاء) على غير ما رأى له الأب في وصيّته. نست الجنيّة أن ذريّة السدنة حكر على الإله لا على أهل الذريّة فسلّط على الوليد مرضاً كاد يذهب به لو لم يتدخّل أحد دهاة الجنّ الذي أشار على الأم قائلاً أن وليدها لن يعرف

الشفاء ما لم تذهب به إلى المعبد لتقدمه قرباناً للإله. ولكن الجنيّة عاندت قائلةً أنها لا تجد فرقاً بين نذر الولد للإله وبين الهلاك لأن الكهانة في حقيقتها ليست تضحية بالدنيا في سبيل الحقّ، ولكنها مصير شقي لا يختلف عن التهلكة. بعدها هامت في البريّة طويلاً قبل أن تلتجيء لدهاة السحرة طلباً للعون. ولكن السحرة تخلّوا عنها لأن الحيلة، كما قالوا، قد تجدي مع أعتى عتاة الخلاء، أو الخفاء على حدّ سواء، ولكن مصيرها الإخفاق عندما يكون الخصم في العراك مع الربّ.

يئست الجنيّة يوم أشرف الوليد على الموت، فأخذته بين يديها وألقت به في مغارة المعبد المنحوتة في قمة الجبل، ثم نزلت من هناك لتنوح. ناحت على فقيدها طويلاً، ويُقال أن نواحها ما زال يُسمع في وادي «هرو» وفي وديان «تارات» المجاورة منذ أقدم الدهور إلى يومنا هذا. لأن مناحة الإنس وقتيّة، أمّا مناحة الجنّ فأبديّة.

من صلب سادن الإله هذا الذي يجمع في أرومته سلالة الإنس بسلالات الجنّ انحدرت ذريّة الإنسان الذي صار أباً لصاحب المسّ بعد أجيالٍ وأجيال. ويروى في أرباع القبائل أنه كان صاحب مسّ أيضاً. أقعدته علّة مجهولة فعرف العجز حتّى بلغ العاشرة أو يزيد. فقد الأبوين منذ السنة الأولى فلم يعرفهما، كما لم يعرف لا جدًّا من جهة الأم ولا جدًّا من سلالة الأب. ترعرع بين أيدي إماء شقيق الأم الذي لم ير فيه إلاّ سليل أختٍ نصّبته أعراف الصحراء وريثاً شرعياً للخال بدل السليل الذي أنجبه من الصّلب. ويوم أنباءه الدهاة بأن شأناً ينتظر الوليد (لأن بلية الأقدار في الطفولة علامة توفيق في الرجولة)

كذّبهم بل وجدّف في حقّ الخفاء قائلاً أنّه في غنىً عن الغنيمة إذا كان من سيجلبها قعيد لا حول له ولا قوّة. وفي أحد الأيام استيقظ القوم فلم يجدوه. فتّشوا النجع شبراً شبراً فلم يعثروا له على أثر. تساءل العقلاء أين يمكن أن يفرّ مخلوق قعيد مشلول البدن فانتهوا إلى الاحتمال الوحيد الذي اعتادوا أن ينتهوا إليه في مثل هذه الأحوال: الجنّ!

ألقوا بالفعلة في رقبة أهل الخفاء وأكّدوا أن العمل ما هو إلاّ دسيسة أخرى من دسائسهم. وقد انتظروا أن يتلقوا من هؤلاء الأشقياء بديلاً كما اعتادوا أن يفعلوا دائماً كلّما اختطفوا صغيراً من صغار المهد من بيوتهم، فلم يدم انتظارهم أمداً طويلاً.

فقد ظهر في أفق القبيلة في أحد الأيام المخلوق الذي كان يوماً قعيد الأرض بالدّاء المجهول. ظهر يدبّ على قدمين، يلوّح في الفضاء بالعصا، ويهشّ قطيعاً كثيفاً من إبلٍ أضاعها خاله في صحراء «مساك» منذ سنين.

ابتهج الخال بإبلٍ فَقَدَ الأمل في استرجاعها، وعندما ذكّره عقلاء القبيلة بنبوءة الدهاة استكبر ثم استنكر وتلجلج لسانه بالقول: «الدهاة تحدّثوا عن سليل إنس لا سليل جنّ. الإنسان الذي استعاد لي قطيعي سليل جنّ لا سليل إنس!».

أمّا سليل المسّ نفسه فلم يعرف أباه إلاّ مهاجراً. لا يحطّ الرحال في أرض ليستقرّ كبقية أهل الصحراء، ولكنه يحطّ الرّحال ليعتزل. لا يكتفي بعزلة الأسفار ولكنه يضيف إلى عزلة الأسفار عزلةً أخرى

بالانقطاع عن الناس وتجنّب الركون إلى النجوع. وكان هذا اللهاث وراء الآفاق سبباً في إشعال نار المنازعات الأبديّة مع الأمّ. لم يدرك في أزمان الطفولة المبكّرة سرّ هذه المشاحنات التي لا تهدأ يوماً إلا لتتمادى أياماً.

وكان عليه أن ينتظر طويلاً كي يقف على الحقيقة. حقيقة المأساة التي لا بدّ أن تنجبها أيّ علاقة معقّدة بين رجل يبحث عن الخلاص بالترحال الدائم وبين امرأة تبحث لذريّتها عن أمان لا يحقّقه غير الاستقرار في مكان. ليس الاستقرار الذي يلعنه أهل الصحراء ليل نهار لأنهم رأوا فيه بعبعاً في أهل الواحات الذين تحوّلوا بسببه إلى عبيد. ولكنه استقرار أهل الصحراء الذي يسمح بالتقاط الأنفاس في مواسم تجمّع أبناء القبيلة في نجع حميم احتفاء بحلول مواسم الكلأ، أو الاستقرار في ربوع الوديان السفلية في الأصياف التي يشتدّ فيها الحرّ وتموت في الصحاري العليا ضروب العشب والنبوت. استقرار أشبه بإغفاءة القيلولة التي قد تستغرق ومضة ولكنها تعيد للبدن قواه المفقودة. استقرار العجالة الشبيه بهجعة قصيرة في سبيل طويل. استقرار الوقفة التي تستطيع أن تهب المهاجر ثقته بأنه إنسان من لحم ودم وعقل لا هبّة ريح. وكان من حقّ المرأة التي خُلقت أصلاً لترث الصحراء، لا السماء، كما تقول وصيّة الناموس الضائع «آنهي»، أن تسترخي في رحلة السبيل وهي التي لم تتوقّف طوال هذه الرحلة عن حمل الأعباء: جنين في البطن وصغار في الحضن!

ولكن المأساة أن الرجل الذي كتب عليه أن يرث السماء لا الأرض، أيضاً على حقّ. على حقّ لأن الأرض التي نهبها أبداننا

لأربعين يوماً لا بدّ أن تهبنا نفسها بالمقابل أيضاً. وهي صفقة لا يكتشف فيها أصحاب النفوس النبيلة أنها خاسرة إلاّ بعد فوات الأوان، إلاّ بعد أن يجدوا أنهم صاروا لها عبيداً. لهذا السبب رأى هذا الفريق الذي اعتنق هذا اليقين يفرّون من الواحات كما يفرّون من الوباء. عرف سليل المسّ بعد سنين أن هؤلاء يخادعون عندما يتجنّبون نزول الواحات خشية الأوبئة، لأنهم في الحقيقة إنما يخشون وباء آخر أبشع ألف ألف مرة هو فقدان الحريّة!

وكان الأب أحد أبرز المنتمين إلى هذا الفريق. بل فاق كل من عرفتهم الصحراء في هذا السبيل إلى حدّ أنه صار مضرب مثل ما زال يجري على ألسنة القبائل حتّى بعد رحيله عن دنيا القبائل.

لقد استشعر العزاء بعد أن أدرك علّة منازعات الأبوين. ولكن كان على السيول أن تتدفّق في الأودية طويلاً، وكان على الخلق أن يتوسّدوا الأرض ويهجعوا إلى جوار أسلافهم كثيراً قبل أن يدرك ليستشعر العزاء، برغم أن جرح القلب الذي سبّبته تلك الخلافات استمرّ ينزف حتى بعد أن غفر لهما، بل وبكى مراراً كلّما تذكّر في مسيرته التالية محنتهما. بكى شفقةً عليهما كليهما دون أن يتحرّر من المرارة الناتجة عن صدام حتمي بين روحين نبيلتين لا ذنب لهما إلاّ أنهما خلقتا بطبيعتين متناحرتين: طبيعة المرأة التي تشدّ إلى الأرض استجابةً لقدرٍ لم تختره لنفسها، وطبيعة الرجل الذي يفرّ من الأرض استجابةً لقدرٍ لم يختره لنفسه أيضاً.

فأي حلّ لهذا النزاع الخالد؟

كان يلقي على نفسه هذا السؤال البسيط في مختلف مراحل العمر، كأنه يمهّد لفاجعة الفراق التي انتهى إليها القِران بعد سنوات عندما تلقى النبأ فاستفزّ فيه ذكرى ذلك اليوم البعيد الذي كان فيه طفلاً يصحو على شجار عنيف بين الأبوين فأدرك بحدس الطفولة أن ساعة الرحيل قد حانت فجاهدت الأم للبقاء كعادتها وأصرّ الأب على الانطلاق. كان شجاراً عاتياً في ذلك اليوم لأن عناد الأم دفع الأب يومها إلى التخلّي عن وقاره واللجوء إلى العنف لأوّل مرّة فسحب الركيزة بقوّة فانهار الخباء على رأس الأم ورؤوس أطفالها أيضاً فعمّ البكاء. سافر الأب برغم كل شيء إلى جهته المجهولة وبقيت الأم في الصحراء مع صغارها وحيدةً إلى أن أقبل على الخباء بعد مضي يومين أحد الرعاة الذين بعث بهم الوالد لا للاطمئنان على حال العائلة المهجورة، ولكن لترحيلها للالتحاق بوطن الأب الجديد.

ولهذا السبب لم يستعجب أحد في قبائل الصحراء أن يهجر هذا الإنسان الغريب دنيا الناس إلى الأبد يوم تلقّوا النبأ، لأنهم ورثوا عن ناموسهم المفقود وصية تقول أن الإنسان الذي عاش بين الناس مهاجراً لا بدّ أن يموت يوماً مهاجراً أيضاً.

أمّا الأُمّ فلم يذكرها في ذلك الماضي البعيد إلاّ وهي تتربّع أمام موقد النار، تضع قِدْراً على حجارة الأثافي، تتشبّث بشكوة الحليب بكلتا يديها. تبدأ المخض، تخضّها يمنةً ويسرةً وهي واجمة، تزمّ شفتيها، تتابع فراغ الأفق البعيد. تتمايل مع الشكوة. يحتدم الحليب في بطن الشكوة. يرتفع صوت الرجرجة. تستمرّ الأهزوجة الخالدة. يعلو صوت الأغنية. تستجيب كائنات الصحراء بالسكوت. تتنصّت في

خشوع كأنها تتوقع حدوث أمر جلل.. أو كأنها تستلذّ بالدمدمة. بالأغنية. كأن الأم وهي تمارس تلك الشّعيرة تكفّ عن أن تكون أمّه. تكف عن أن تكون أمّه وحده. تصير أمّاً كبرى. تصير أم الصحراء كلّها. أم الكائنات كلّها. لأن الأم التي يعرفها تختفي في أمّ جليلة مجهولة. تختفي لأنها تخفي سرًا. لأنها سوف تلد بكفاحها مع الشكوة جنيناً جديداً ليس ككل الأجنّة. لأنها سوف تنتج بعملها المحموم سرًا مهيباً، لأن المخض المميت لن يتمخّض عن كتلة الزّبد، ولكن عن أعجوبة، عن كنز آخر مبثوث في روحها هي، لا في روح الحليب الذي تستخرجه بيديها الراجفتين في قطعة الزُّبد.

في مثل هذه الصلاة فقط كان يفهم لماذا عليها أن تقاوم الأب وترفض لهاث الهجرة. في مثل هذه الصلوات فقط كان يدرك أنها لا بدّ أن تمكث، أن تقتعد الأرض، أن تلامس التراب، كي تبدع، كي ترحل رحلة أخرى. رحلة ليس المدى سبيلها، ولكن أعماق المجهول منتهاها. لأنها لن تستطيع أن تبدع حقيقتها وحقيقة الصحراء إذا لم تستسلم لقدرها الذي جعلها امرأةً لا رجلاً، أُمًّا لا أباً.

فهم حقيقتها بالحدس كما فهم حقيقة محنة الأب عندما يمكث في الأرض طويلاً، لأن الهمّ الذي تفضحه عيناه في مثل هذه الأحوال كان أكبر من أن يُحتمل. همّ لا يستطيع أن يحتمله من يراه فكيف يستطيع أن يحتمله من يحياه؟ الهمّ الذي يتكلّم برطانة الخفاء التي تقول أن للمخلوق إذا كان مسكوناً لا شفاء سوى الفرار. همّ لم تستطع حروبه ضد الدخلاء أن تكون له ترياقاً. همّ لم تستطع شجاعة الزهد في متاع الدنيا أن تكون له بلسماً. هم لم يستطع عشق الحسان

أن يكون له عزاءً. همّ لم يكف الفرار عبر رحاب الصحراء له دواءً، ولكنه ظلّ ذلك الدّاء الذي لم يجد له الدواء إلاّ بالفرار الأبدي من دنيا الصحراء كلّها.

6 ـ تجربة التّيه

«على الإنسان الذي قرّر أن يحتكم إلى العقل أن يلتزم بأحد ثلاثة دروب: أوّلها أكثرها نبلاً: العقل! ثانيها أكثرها يُسْراً: المحاكاة! ثالثها أكثرها مرارة: التجربة!».

(كونفوشيوس)

ثم جاء اليوم الذي قرّر فيه الأبوان أن يدفعا به إلى الدنيا. فسلّماه قطيع أشقى مخلوقات في الصحراء: الجداء!

فقد جرت عادة الأجيال أن يتولّى السليل الأصغر سنّاً المهمّة الأعسر شأناً. والمهمّة الأعسر دائماً هي رعي الجداء، تليها مهمّة رعي قطعان الأغنام، تليها مهمّة رعي قطعان الإبل، وهي الأيسر على الإطلاق. وقد تولّى شقيقه الذي يكبره ببضع سنوات مهمّة رعي قطيع الغنم. في حين تولّى أخوهما من جهة الأب الذي يكبرهما كليهما مهمّة رعي المخلوقات الأنبل في الصحراء: الإبل!

خرج إلى الخلاء بقطيع الجداء فلم يعرف في رحاب المراتع شقوة معاندة هذه المخلوقات الشقية فحسب، ولكنه عرف الخلْق. عرف أقراناً دخلوا أيضاً مسيرة الرعي للتوّ، وآخرين قطعوا في المسيرة شوطاً أبعد. عرف أيضاً راعيات يتطاولن في منازعة الجداء لأن أهلهن لم ينجبوا من بطون أمهاتهن أولاداً غير الإناث.

وقد أخفق في تجربته الدنيوية الأولى منذ أول يوم. فقد بدأت الجداء تشكو بثغاء حادّ متواصل يصمّ الآذان، ثم بدأت تتقافز في الهواء

كالمجدوبين الذين أصابتهم لذّة الغناء بالمسّ. ثم.. ثم تدافعت تركض في العراء المكشوف حتّى اختفت عن الأنظار. طاردها حتى أعجزه التعب، ولكنّه لم يعثر لها على أثر. تفقّد آثار حوافرها على الأرض، ولكن الخلوة المفروشة بالحجارة حجبت الأثر فهام في الخلاء ميمّماً صوب الأفق نفسه الذي ابتلعها. ولكن الأفق كان يفضي إلى الأفق، والمتاهة تتمدّد لتلد المتاهة. استمرّت المطاردة اليائسة حتى منتصف النهار فجفّ الحلق، وتخشّب اللسان، واستشعر العطش. جلس تحت شجرة رتم وحيدة في قاع منحدر هزيل شقّته الأمطار في مواسم السّخاء. كانت الأوجاع في قدمه الموسومة بعلامة الجنّ لا تطاق. ثم بدأ الألم يتمادى حتّى فقد برجله الإحساس. راقب السراب وهو يتدفّق في الخلاء ويزحف نحوه بعناد فازداد إحساسه بالظمأ.

استلقى على قفاه واستسلم لسكون الصحراء المميت. احتمى بظل الشجيرة الشحيح وأنصت. لا شيء يُسمع. لا شيء يُرى. لا شيء يحدث. لا وجود لشيء في الصحراء غير السكون المميت. حتى السكون سكن وصمت وتصنّت ليسمع، لأنه اكتشف في ذلك اليوم أن للسكون صوت. صوت حقيقي لا صوت الرنين الشبيه بطنين الذباب أو النحل كما يطيب للأقران أو الرعيان أن يصفوه. صوت مبهم، مريب، كأن الخلائق ترطن فيه بألف لسان في الوقت نفسه. كأن قبائل الجنّ تتنافس فيه لتقول كلمتها التي لا تستطيع أن تقولها في المحافل التي ترتفع فيها أصوات الناس. كأن الصمت يستعير من المجهول لساناً أقوى من كل الألسن لأن الأجيال ساعتها تتكلّم فيه بألسنتها فتتبلبل الصحراء بالهرج وتشوّش الدنيا بالبلبلة.

ثم.. استيقظ. استيقظ فاكتشف أنه غفا دون أن يدري. عاوده الإحساس بأوجاع قدمه الموسومة بضربة المسّ فابتهج لأنها لم تصب بالشلل كما توهّم عندما فقد الإحساس بها. في العراء تزحزحت الشمس عن موقعها وبدأت فلول السراب تتراجع. تراجع الحرّ قليلاً ولكن الإحساس بالظمأ تمادى. فكّر أن ينطلق قبل أن يهجم المساء. إذا هجم الليل فقد السبيل إلى أي اتجاه. ذلّك رجله الممسوسة قليلاً بكلتا يديه. هبّ. تردّد قليلاً. ولكنه انطلق أخيراً. لم ينطلق وراء مخلوقاته الممسوسة المسماة في لغة القوم جداءً، ولكنه انطلق في الاتجاه المضاد. انطلق نحو المضارب. تخلّى عن جدائه وعاد إلى الوراء طلباً للنجاة. لا ينكر أنه استشعر العار في تلك الساعة. ولكن حنقه على هذه الحيوانات الشريرة كان كبيراً إلى حدّ تمنّى فيه أن تنحر بسكاكين لصوص الماشية المنتشرون في الصحراء أو تهلك بين أنياب الذئاب حتّى لا يضطرّ للخروج وراءها يوماً آخر.

عقَد يديه وراء ظهره وتدحرج كيبيس العشب عبر الخلاء. عقد يديه وراء ظهره دون أن يدريَ أن هذا الفعل ما هو إلاّ تميمة من تمائم كثيرة ورثها عن الأب لا بدّ أن يستعين بها كل مَنْ قرّر أن يقهر في مسيره الصحراء.

تدحرج طويلاً.

صعد وهاداً كثيرة مفروشة بحجارةٍ حزيز سلخت قدميه الحافيتين ونزل شعاباً هزيلة القيعان وأخرى أعمق غوراً تتبعثر في أحاضيضها شجيرات عطشى وضروب أعشاب جافّة دون أن يدرك المضارب. فتّش في السبيل عن آثار الخلْق ولكنه لم يعثر سوى على آثار قطعان

ظنّها في البداية أغناماً، ولم يكتشف أنها آثار غزلان إلاّ بعد أن فاجأ جليباً يرتع في قرعة محصورة بين مرتفعين. دقّت الأرض بحوافرها وتحفّزت للفرار في البداية، ولكنها تراجعت وظلّت تراقبه بحذر زمناً. ثم اطمأنت وعادت تحشر رؤوسها في عشب المرعى. راقبها زمناً. تذكّر أن الغزلان لا ترتع في المراعي المجاورة لنجوع القبيلة. وخمّن لأوّل مرّة أنه أضاع الطريق المؤدّي إلى المضارب.

مالت الشمس إلى المغيب وكان عليه أن يحدّد سبيل الخروج قبل حلول الغروب. تفقّد العراء فوجده ينطلق إلى جهات الدنيا الأربع. ينطلق إلى الأبد. ينطلق صارماً، لا مبالياً، مستفزّاً استفزازاً يستثير اليأس. استولى عليه وهن شديد مفاجىء فركع أرضاً. غمره إحساس غريب. إحساس بأنه وحيد ومهجور وعاجز عجز من لا حول له ولا قوّة في متاهة لا بداية لها ولا نهاية. في تلك اللحظة وقع بصره على أثر. أثر لخفّ بعير مطبوع بوضوح على حفنة رمل تحتمي بحجارة تعلو شعفة الرابية المطلّة على السهل الذي يرتع فيه قطيع الغزلان. كان أثر الخفّ في رقعة الرمل عميقاً، واضحاً، ممّا يقطع بحداثة عهده بالأرض.

رأى في العلامة المستديرة المجسّمة على التراب هبةً مجهولة فوجد نفسه يفزّ من ركعته ويفرّ وراء العلامة. فقد سمع العقلاء يردّدون وصيّةً تقول أن سلالة الصحراء لم تكن لتنجو من التّيه يوماً لو لم يدبّر الخفاء الأثر ليكون لهذه الملّة الشقيّة دليلاً. وقد سمعهم يقولون أن الأثر ضربان: ضرب في السماء صارت فيه النجوم دليل كل من أوتي من علم النجوم قليلاً، وضرب في الأرض صارت فيه

آثار الأنام أو أنعام الأنام دليل كل من شرح الخفاء صدره وجعل له من سرّه نصيباً.

تعقّب الأثر في الرقعة التالية. كان بيّناً في العراء المفروش بالحصباء أو على الخلوة الطينية المفروشة بالحجارة السوداء المتوسطة في الحجم. ولكن الأثر كان يغيب ما أن تستشرس الأرض وتتسلّح بالألواح الحجرية الأكبر حجماً. وكان يجاهد كثيراً قبل أن يهتدي إلى الأثر من جديد. ثم صارت متابعة الأثر أمراً مستحيلاً في المسافة التالية التي تضافرت فيها خشونة الأحجار مع عتمة المساء فلم يجد بُدًّا من أن يبيت ليلته ليستعين على السبيل في الصباح بضياء النهار.

ولكن تلك ليلة لم يكتب له أن ينساها إلى الأبد لا لأنّها لم تكن شبيهة ببقية الليالي في الصحراء فحسب، ولكن لأن القبيلة تحدّثت بها طويلاً قبل أن تتغنّى بسيرتها في الأشعار لتصير وصيّة من تلك الوصايا التي تتناقلها الأجيال.

في البداية، عندما توسّد ذراعه وهجع، ورأى حشود النجوم في صفاء السماء، لم يستشعر أي إشارة يمكن أن توحي بأن تلك الليلة يمكن أن تختلف عن بقيّة الليالي.

كان الفصل شتاء، ولكن الهواء كان ساكناً، والطقس معتدلاً. حتّى أنسام الشمال التي تهب على صحراء «تينغرت» مع حلول الليل حاملةً أنفاس الصقيع تلكّأت في تلك الليلة واحتفظت بأنفاسها، فلم تعرف الدنيا غير سكون أبدي كان يمكن أن ينقلب كابوساً لو لم ينتهكه عواء بعيد لذئاب جائعة.

استلقى على ظهره وتأمّل عنقود «أشيت أهض»[1] الذي يلتئم التئاماً حميماً حول نفسه كأنه كوكبة عذارى تتلاحم لتتبادل الأسرار، ثم تومض بأضواء كالإغواء إيماء استحياء وتعبيراً خفيًا عن فرحتها بفوزٍ نالته في الأسرار.

في تلك الليلة رأى الكوكبة كما لم يرها من قبل. رأى ليلتها الشقيقات السبع في حُسْنٍ لم يره فيهن من قبل. رأى الحسناء التي أطلقت عليها الأجيال اسم «الرجراجة» بسبب ميلها إلى البدانة. رآها تهامس شقيقتها التي وردت في ناموس الأجيال باسم «ذات العماد» بسبب قامتها الفارهة وساقها المارد الذي يشبه في كبريائه العمود. رأى ثالثتهن التي فازت بقلب «الشفّافة» بسبب هزالها وشحوب لونها. رآها تنسلّ من بينهن لتختلي بقرينتها الملقّبة بـ«ذات القرون» بسبب خصلات شعرها التي ترفرف في الفضاء. رأى خامستهن التي تنعتها الألسن بـ«الشعلة الوضّاءة» لأن في عينيها وحدها رأت الأجيال الجسارة، رأت الشهوة، رأت ذلك الحنين الذي لا يُرى إلاّ في العين الظامئة إلى العرفان، فكان أن تذكّر الشعلة التي اندست في قلبه مستعيرةً بدن الحيّة إبّان الرحلة الأولى في ربوع الوادي المحرّم. تذكّر المراسم التي تخلّلت تلك الرحلة ففزّت من مقلته اليمنى دمعة حنين سرعان ما منّت عليها «الشعلة الوضّاءة» في السماء بفيض نورها فتلقفت الهبة بلهفة واستجابت للفيض بوميض مضادّ كأنها تلبّي النداء، كأنها تستجيب للنبوءة، كأنها تعانق معشوقة السماء صانعةً من الوميض وصيّة عهد

(1) «أشيت أهض»: الثريّا (بلسان الطوارق).

ربطتهما في الماضي بميثاق الحنين إلى المجهول، ربطتهما بميثاق اللهفة إلى «تيدت»[1] التي كبّله بها الخفاء عندما استعار أسمال حكيم الأجيال العجوز في مراسم الميلاد الثاني في وادي السلالة المحرّم «آوال». ثم ها هو يبعث له بكوكبة الثريّا رسولاً يهتدي بها في السبيل الطويل والمميت إلى ديار «تيدت» المجهولة التي لم ترها عين، ولم تسمعها أذن، ولم تخطر على قلب بشر. وها هي «شعلة الضياء» تحتضن خلّتها المدعوّة «صاحبة الكهانة»، بل تحتضن النبوءة ذاتها، لأن النبوءة ما هي إلاّ الشعلة إذا تستّرت، كما الشعلة ما هي إلاّ النبوءة إذا استظهرت. وها هي النبوءة تكابر كعادتها دوماً. ها هي النبوءة تنسحب من الرحاب باستعلاء حتى تتوارى في بدن الحسناء السابعة الملقبة بلغة الأجيال بـ«العمياء»! لأن النبوءة إذا هجرت الأوطان، وخلّفت النجوع وراءها، فسوف تعمّ الظلمات، ولا يبقى في الدنيا سوى العماء.

عقد عهداً، في تلك الليلة، موثّقاً بالدمع مع معشوقة الأجيال الثريّا دون أن يعلم أن القِران بكوكبة الثريا ليس مزيّة، ولكنه لعنة. لم يدر المسكين أن من عقد العهد مع الثريّا فقد عقد عهداً مع الحظّ حقًّا (لأن الثريا لا تخون ولا تخذل ولا تتخلّى عن قرنائها)، ولكن اللعنة متستّرة بالسجيّة مثلها في ذلك مثل كل لعنة. لعنة الثريا في سجيّة الثريا التي قرّر لها الناموس أن تتحوّل، أن تغترب، أن تموت هنا لتولد هناك، تولد هناك لتعود إلى الدنيا من جديد. وهو لا يدري أنه

---

(1) «تيدت»: الحقيقة (بلسان الطوارق).

بخياره قد اختار مصيرها. اختار أن يشاركها قدرها. يشاركها حضورها وغيابها. يشاركها ظهورها واغترابها. يشاركها هلاكها وميلادها. يصير مثله مثل الماء الذي لا يحيا إلاّ ليموت، ولا يموت إلاّ ليحيا، لأنه لا ينزل من رحاب السماء مطراً إلاّ ليجفّ في حضيض الأرض ويتحوّل بخاراً، ولا يتحوّل بخاراً إلاّ لينقلب مطراً.

كان عليه أن يتحوّل في دنيا الأسافل طويلاً كي يدرك أنه حكم على نفسه بالاغتراب الأبدي عندما كبّل نفسه بالعهد ووضع قدره في يد معشوقة الأجيال رهينةً.

ولكن..

ولكن عواء الذئاب ما لبث أن تمادى في تلك الليلة، وكان عليه أن يخوض تجربة جسيمة لو لم تهبّ لنجدته معشوقته الثريّا.

فهو وإن نسي معنى أن تظهر الثريا في مطلع الليل إلاّ أن الصحراء لم يكن لها أن تنسى هذه العلامة أبداً. ففي حين مضى يستمتع بمسلك الحسان في السماء كانت الأرض تتلقّى وصيّة الناموس الخالد الذي كبّل به رب الأرباب «هرو» الأشياء منذ الأزل.

ففي الوقت الذي كان فيه يتلهّى بإبرام العهود مع حسانٍ لا يثبتن على حال مثلهن مثل كل الحسان، كانت الصحراء تتدثّر بالقرّ الذي لم تشهد له نظيراً منذ أجيالٍ وأجيال. لأن طلوع الكوكبة في أوّل الليل نذير قرّ في عرف الناموس. وصفاء الوطن في السماء نذير قرّ آخر في عرف الناموس. وتمادي الإيماء في أجرام الحسان نذير قرّ ثالث في

عرف الناموس. فبأي حال سيهجم القرّ إذا تكلّمت به الإشارة ثلاثاً لا مرّة واحدة؟

في البداية نعس. في ذروة مناجاته للكوكبة غلبه النعاس. لا يدري كم استغرقت غفوته، ولكنه عندما استيقظ ونظر حوله لم يجد إلى جواره الصحراء. وجد رقعةً مكسوّةً برداء أبيض، ناصع، كأنه الكفن، يمتدّ جليّاً إلى جهات الدنيا الأربع. يمتدّ إلى الأبد. أيقن أنه ما زال يحيا في رحاب رؤيا لم يرها من قبل ففرّك عينيه بيديه ولكن الرؤيا لم تنقشع. همّ بأن يفزّ ليقف على قدميه فاستشعر أطرافه ثقيلة كأنها شدّت إلى الأرض بألواح الحجارة. دلّكها بيديه طويلاً قبل أن يحرّرها من أصفاد القرّ، ثم جاهد طويلاً قبل أن يتمكّن من الوقوف على قدميه. تأمّل الخلاء المغمور بأكفان البياض ذاهلاً. أيقن أن أهل الخفاء الأشقياء اختطفوه مرّة أخرى وذهبوا به إلى صحراء أخرى غير الصحراء التي نزلها. تزحزح خطوة فاستعسر المشي. كانت قدماه ثقيلتان، باردتان، بل مشلولتان. استنكر الشلل فكافح ببسالة ليخطو. حقّق خطوة أولى، خطوة ثانية، مشى خطوات، مشى فوق البياض، داس بقدميه الكفن الناصع الذي يلف الصحراء. ولكنه لم يقتنع. ركع أرضاً ولامس بكفّه الباردة الأرض. أحسّ بها باردة برداً لا يطاق. سحب يده فوجدها مبتلّة بالماء. تحسّس البلل بلسانه فوجده سائلاً بلا طعم. أيقن أن السائل ليس سوى ماء، ولكنه استغرب أن يتحوّل الماء فوق الأرض لحافاً أبيض. اليقين أنه لا يحيا اليقظة، ولكنه يحيا الرؤيا. ولكن إحساسه بالصقيع شكّكه في حقيقة الرؤيا. أدرك بعد أن تسكّع هنا وهناك أن الإحساس بالصقيع أوهن فدبّ في الخلوة دون أن يجرؤ على الذهاب بعيداً خوفاً من أن يضيّع الأثر.

سرى في أطرافه الدفء فاستحسن الحركة. هرول حول المكان حتى أحسّ بالتعب. عاد إلى المرقد وبدأ يحفر الأرض. حفر مستعيناً بقطع الحجارة. حفر طويلاً. وعندما اكتملت الحفرة ذهب وجلب لها ألواح حجارة من العراء المجاور. جلب حجارة كثيرة. ثبّت الأحجار حول الحفرة. صنع كهفاً صغيراً متوّجاً بكوم حجارة شبيه بأكوام الحجارة التي اعتاد الأسلاف أن يكدّسوها على أضرحة أكابر القبائل. اندسّ في كهفه وتطلّع إلى السماء. كانت ما تزال تحتفظ بصفائها، ولكن كوكبة الحسان اختفت من رحابها. اكتأب. نزّت من مقلته دمعة دون أن يدرك السبب. تكوّم حول نفسه كالقنفذ. استشعر الدفء، ولكنه لم ينم، لأنه عندما تأهّب للنوم لاحظ أن قبس الفجر قد قطع دابر العتمة من الدنيا فتبدّت الصحراء في بياضها أكثر بهاء وكبرياء.

ولكن البهاء على ما يبدو هو ما لا يعوّل عليه في دنيا الصحراء. فقد بدأت الستور تنقشع، والندى المجمّد يندثر ما أن طلع الصبح وأطلّت شمس الصحراء.

خرج من قبوه زحفاً. مدّ يده ولامس الحجارة المبلّلة بالجليد الذائب. لحس الماء بلسانه. لحس مراراً. كان له البلل إفطاراً وزاداً برغم أنه لم يستشعر جوعاً ولا عطشاً. تسكّع بالجوار بحثاً عن أثر الخف على الأرض الحجرية. وجد آثار قدميه البارحة مطبوعة في كل مكان. ابتعد عن المكان خطوات أخر. فتّش بعناية. اكتشف العلامة. اهتدى إلى الأثر. تنفّس بعمق استعداداً لرحلة طويلة، مجهولة. قبل أن ينطلق التفت إلى الوراء. تأمّل مأوى البارحة الذي صنعه بيديه

وتوّجه بأكوام الحجارة فتبدّى كضريح السلف أو علامة تهدي العابرين إلى السبيل.

تفقّد في وقفته امتداد الصحراء، ثم تقدّم وسلم أمره لخفّ البعير. سلّم أمره لخفّ البعير كأنه يتشبّث بذنب البعير الذي أخذ على عاتقه وعداً بأن يسير به إلى المجهول.

سار وراءه يوماً كاملاً. سار بلا توقّف. سار لأن الصحراء في امتدادها أنهكتها الوعورة فلانت وتحلّت بالمرونة. تحلّت الصحراء بالمرونة فتبدّت آثار البعير على الأرض بوضوح أشدّ. تبدّت كأنها انطبعت للتوّ فاشتعل فيه الفضول وصمّم أن يسرع ليدركها. لم يعد معنياً بالوصول بقدر ما كان يلهث ليدرك الأثر. ليدرك البعير المجهول الذي يسير به إلى أوطان المجهول دون أن يدري عمّا إذا كان بعير إنس هو أم بعير يمتطيه الجنّ الذين لا يعشقون حيواناً في الصحراء كما يعشقون سلالة البعائر كما يؤكّد العقلاء.

ولكنه في المطاردة لم يأبه لسلالة البعير كما لم يأبه لوجهته. ما همّه هو أن يدرك صاحب الأثر، أن يدرك البعير، لأن البعير هو المخلوق الوحيد في الصحراء الذي لا ينطلق إلى التّيه، ولكنه ينطلق فراراً من التّيه. البعير ينطلق ليدرك أهلاً، ليدرك وطناً، ليدرك ماءً، لأن في عرف البعائر لا وطن ولا أهل لمن اختار حياة الصحراء إلاّ الماء!

في البُعْد لاحت الواحة فجأة. لاحت بأكواخها المضفورة من جريد النخيل، وأبنيتها المبنيّة من ألواح الطين، فاستولى عليه همّ

غامض بدل أن يستشعر الفرحة بالنجاة. استولى عليه الهمّ لأنه عرف أن عليه أن يودّع الأثر إلى الأبد، لأنه سيرتمي قريباً في أحضان البشر. استولى عليه همّ لأنه أدرك أنه لن يدرك بعد الآن لا الأثر ولا صاحب الأثر، ولن يقف على حقيقة العلامة الخفيّة التي قادته من يده، وصارت له في صحراء لا أول لها ولا نهاية دليلاً أنقذه من الهلاك، ولم تتخلَّ عنه حتى سلّمته لدنيا العمران ليتلقّفه الأقرباء الذين يحتمون دائماً بالواحات ليسلّموه بدورهم إلى الأهل الذين سيعودون به إلى الصحراء فيفارق حميمه الأثر إلى الأبد. تحوّل الهمّ غصّة مريرة فبكى.

كان ما زال يبكي عندما هرعت النسوة للقائه وهنّ يملأن الدنيا بالزغاريد فهدهدنه ظنّاً منهن أنه يبكي وجعاً من قساوة التّيه ولم يخطر ببالهنّ أنه يبكي ألماً لفراق الأثر، لفراق التّيه!

سمع إحداهنّ تتكلم بلسان النبوّة قائلة:

ـ لو لم تنجدك الثريا بالصقيع، يا شقيّ، لأهلكتك الصحراء بأنياب الذئاب!

ولكن كاهنة أخرى كانت تتابعه بوجوم طوال الوقت رفعت صوتها بآهة موجعة كأنها زفرة من لحن مميت قبل أن تتكلّم بنبوءة خاطبت بها الخلاء لا الخلْق:

ـ الويل لمن ذاق طعم التّيه يوماً، لأنه لن يسكن في أرضٍ يوماً!

7 ـ تجربة الإغواء

«إنسان لم يعترض سبيله إغواء السعادة أو الشقاء يموت ميتة جندي لم يعترض سبيله عدوّ».

(كلينغر)

نال من نساء القبيلة لقب «معشوق الثريّا» منذ ذلك اليوم. ويبدو أن ملّة النساء التي تغدق على أبناء القبيلة بالألقاب هي أوّل من يحسد أصحاب الألقاب على هذه الألقاب. لأن المرأة هي أوّل من يصدّق الشائعة التي أطلقتها حتى لو كانت تعلم أن هذه الشائعة ما هي إلاّ الأكذوبة التي لفّقتها كما تبيّن له فيما بعد عندما تدرّج في فلك الزمان وصار بمسلك النساء أعلم. ففي الألقاب إغواء يستدرج ربّة الإغواء نفسها، وإلاّ ما سرّ انقياد ملّة النساء إلى كل ذي لقب مكابر؟

لم يظنّ أن دعابة عابرة مثل إطلاق لقب عابر كلقب «معشوق الثريّا» يمكن أن يستثير فضول الحسان ويشدّهنّ إليه بحبل أمتن من حبال المسد لو لم تسرّ له فتاة المرعى بتأويل آخر في تفسير اللّغز.

قالت (وهي تكشف له عن صدرها البكر) أن السرّ ليس في اللّقب ولكن في حقيقة اللّقب. قال لها أنه لا يرى أي حقيقة في اللقب، فقالت (وهي تتعرّى نهائياً من ثوبها) أن الرجال البلهاء وحدهم يتعامون عن حقيقة الألقاب، لأن البطولة ليس أن يقهر الفارس عدوّاً بحدّ السيف، ولكن في أن ينجو من مكيدة الصقيع في ليلةٍ هلك فيها القطيع وراء القطيع. فقال لها أن الشرّ ليس أن يهلك التائه بالصقيع، ولكن

الشرّ أن يضيّع في السبيل الأثر. فما كان منها إلاّ أن تضاحكت بإغواء وقالت (وهي تجذبه إليها) أن أحبّ رجل إلى ملّة النساء رجل انقطع من ربوع القبيلة يوماً ثم وُلد من بطن المجهول من جديد. الميلاد الثاني، قالت له الحسناء، هو ما يأخذ عقل النساء. ثم تساءلت بمكر (وهي تطوّقه بذراعيها) هل تدري لماذا؟ لم تنتظر منه جواباً. لأن سلالة الرجال وحدها تستطيع أن تولد مرّتين. أمّا النساء فملّة لا تولد إلاّ مرّة، لأنها لا تملك روحاً حتّى تبعث حيّةً كما يُبعث الرجل!

تابع لغو الشقيّة بفضول في البداية. ثم استعصى الفهم عندما تمادت في استخدام سلاح الإغواء حتّى غاب عن دنيا الصحراء تماماً. غاب هو ولكن لسان الشقية لم يكفّ عن الثرثرة بتلك الأحاجي الذي لا يعرف من أي لسان استعارتها حتّى أنه لم يخطر له أن يتساءل عن هويّتها إلاّ بعد أن تحرّر من أحضانها، فحشرج بصوت مبحوح: «ولكن. . من أنت؟».

تضاحكت. اشتدّ الوميض في عينيها. ثم ابتلعت ضحكتها. قالت: «وما جدوى أن تعلم من أنا؟ ألم تشهد في أحضاني ميلاداً ثالثاً منذ قليل؟ اعترف بأنه كان ميلاداً ثالثاً! ها ـ ها ـ ها!».

بعدها لم يَرها أبداً. لم يرها لا في المراتع ولا في الربوع ولا في أي مكان آخر. انقطعت من الصحراء فأيقن أنها سليلة جان لا سليلة إنسان.

ولكن الامتحان مع السليلة المريبة فاقه امتحان آخر مع حسناء تكبره بسنين كثيرة ترجع بسلالتها إلى أمّ جنيّة من بنات وادي «آوال»

اقترنت برجل من أهل القبيلة في زمانٍ عمّت فيه الصحراء المجاعات، فكانت سليلة الجنّ تلك تأتي لهذا الرجل بأطعمة لم تعرف الدنيا لمذاقها مثيلاً كما يُروى، دون أن تنسى الماكرة أن تهدّده بسبّابتها كي لا يفشي السرّ. وبرغم علم المسكين بخطورة الاقتران بامرأة من سلالات الخفاء عملاً بوصايا الناموس المفقود «آنهي» الذي يحذّر من الاقتران مع ملل الأغراب والدخلاء، إلاّ أنه لم يكن ليقاوم إغواء امرأة قررت أن تغزو قلبه بأشهى الأطعمة في زمن المجاعات الذي لا يجد فيه بقية الخلق أتفه قوت يسدّ الرمق، سيّما وأنها لم تكن مجرّد امرأة، ولكنها امرأة وفوق ذلك حسناء. فما كان منه إلاّ أن ارتضى الارتباط معها بميثاق. وقد ارتكب خطأ مميتاً يوم خرج برفقة الفرسان في إحدى الغزوات إلى بلاد الأدغال فعاشر في الرحلة حسناء خلاسية كانت في الغزوة سبيّةً، ناسياً أنه لم يقترن بأنسيّة كبقية الفرسان، ولكنه ارتبط بعهد مع جنيّة داهية هيهات أن تُخفى عليها خافية.

بعد العودة من الغزوة بأيام عثر الرجال على الشقيّ مخنوقاً بالحبل وجسده يتدلّى في هاوية البئر.

لم يشكّ أحد أن هذا الفعل كان من عمل جنيّته اللئيمة التي اقتصّت من الرجل جزاء خيانته العهد. وهي لم تكتفِ بالاقتصاص من رجلها، ولكنها قررت أن تثأر من القبيلة كلّها يوم ألقت بسليلة أنجبتها من صلب القرين إلى حضن جدّتها من أبيها ملفوفةً في قماط من حرير لم تر الجدّة لنسيجة ولا لبهائه نظيراً، قبل أن تقول لها أنها قررت أن تهجر ربوعهم إلى الأبد لأنها لا تستطيع أن تستبدل أهلها بأهلٍ لا وفاء لهم لميثاق أو عهد، كما لا تستطيع أن تحمل ذريّة أنجبتها من سلالة

الخيانة لأن أهلها لن يرتضوها في ديارهم ليقينهم بأن الجرثومة الصغيرة هي التي تفتك بأعظم الأبدان حجماً وسلطاناً. ثم بكت بين يدي الجدّة حسرةً على فراق وليدتها قبل أن تنصرف وتختفي من النجوع إلى الأبد فلم يرها أحد بعد ذلك اليوم أبداً.

أمّا الوليدة فقد تربّت في أحضان جدّيها اللذين رأى كل منهما فيها عزاء لمحنتهما في فقدان السليل المفقود، وبديلاً له كابن وحيد لم ينجبا سواه. وقد شبّت الطفلة في ربوع القبيلة دون أن يلحظ أحد أن في مسلكها ما يمكن أن يذكّر بسلالة أهل الخفاء باستثناء أمرٍ واحد: الحُسْن!

كان حُسنها يزداد مع الأيام، ويتمادى كلّما قطعت في رحلة الزمان شوطاً أبعد حتى بلغ حدًّا أفقد فتيان القبيلة العقل. فكان يُغمى على كلّ من وقع بصره عليها من ذوي النفوس الضعيفة، أو من الشبّان الأكثر ميلاً إلى الحنين أو الوجْد. وحدث مرّة أن رمى أحدهم بنفسه في هاوية البئر مأخوذاً بسحر جمالها الذي لم تر له القبائل في بنات الصحراء مثيلاً. والمثير أن ذلك الأبله كان قد وقع بصره عليها لأوّل مرّة حسب ما يُروى. كما لم يبادلها كلماً، ولم يقل في عشقها أشعاراً أسوةً بأقرانه من شباب القبيلة. بل لم يَبُح لأحد من الأغيار بوقوعه في حبّها. ويبدو أنه فقد صوابه في الحال ما أن وقع بصره عليها، فلم يجد حيلة للتعبير عن جنونه بالجمال غير الهاوية!

وهو مصير ظلّ يهدّد الكثيرين مما دعا مجلس العقلاء لأن يتخذ تدبيراً احترازياً تحتجب الجنيّة بموجبه وراء نقاب أسود كلما ظهرت للناس كسبيل وحيد لتحصين أبناء القبيلة من شرّ فتنتها.

كان يشاهدها تتسكّع بين المضارب، أو تتجوّل في الخلوات البريّة المجاورة للنجع بستورها الخفيّة ويستعيد سير القوم عن حُسْنها المدمّر فتستولي عليه رجفة لا يدري عمّا إذا كانت علّتها الخوف أم الفضول. كانت تتباطأ في خطوها المهيب كلّما عقدت بينهما المصادفة لقاء. وكان يرصد برقعها المعتم فيحسّ برهبة لا تقارن إلاّ بالرهبة التي يستشعرها عندما يبعث له الخفاء برسل الرؤيا. لا يبدو من بدنها إلاّ قامتها المكابرة. وبرغم ذلك يستشعر على نحوٍ خفيّ سلطان فتنتها. فتنة كل عضو من أعضاء جسدها برغم تستّر هذه الأعضاء عن الأنظار. وكان يعصف به الدوار في كل لقاء بسبب عبير غريب كان ينبعث من جسدها الملفوف في ثنايا الكتّان.

استمرّ ذلك زمناً إلى أن جاء يوم.

خرج إلى الشعاب المجاورة بحثاً عن الكمأ في عشيّة أحد أيّام الربيع. تلهّى باستكشاف قُلاع الأرض مستعيناً بعصا السدر، مترنّماً أثناء ذلك بلحن قديم من لحون الشجون عندما تبدّت في وجهه تبدّي الفجاءة كأنها شبح من أشباح الخفاء. ابتلع لحنه مع ريقه وهمد في مكانه محدّقاً نحوها ببلاهة. غزته بعبير جسدها الخفيّ حتّى زعزعه الدوار. أغمض عينيه من فرط اللذّة فسمعها لأوّل مرّة: كان في نبرتها بحّة ممتعة، في لهجتها لثغة محبّبة. صوتها يستثير النشوة، صوتها كلّه هبة:

ـ يعتصم صاحب المسّ بعزلته حتّى وهو يخرج في طلب الكمأ؟!

أجاب بلسان ليس لسانه:

ـ عزلة صاحب المسّ ليست أعظم شأناً من عزلة ربّة المسّ!

استنكرت:

ـ هل قلت ربّة المسّ؟

أجاب بلا تردّد:

ـ بلى. إذا كنتُ صاحب مسّ فأنت ربّة المسّ.

ـ يروق لي أن أسمع هذا من لسان صاحب مسّ لا صاحب عقل!

ولكن راق له أن يجادلها في شأن العزلة دون أن يعرف لماذا:

ـ العزلة قدَرك أنتِ أيضاً. العزلة قدر كل من خفى في عبّه قَدَراً.

سكتت برهة فحدس أنها تتفحّصه من وراء حجابها. قالت أخيراً:

ـ صدقتَ. العزلة قدَر أهل المسّ. العزلة معشوق أهل المسّ. من لم يكن به مسّ فهو ليس أهلاً لعشق. لا أعرف كيف تعشق نساء القبيلة رجالاً لم يعرّضهم الخفاء لمسّ!

ـ كما لا أعرف كيف يعشق رجال القبيلة نساء لم تمسسهنّ الخافية. امرأة بلا مسّ امرأة خاوية.

ندّت عنها ضحكة مكتومة. داعبته بانتشاء:

ـ لا أعرف ماذا ستفعل بك صبايا القبيلة لو سمعن رأيك فيهن. أظنّ أنهنّ سوف يقطعن لسانك قبل رجمك بأشعار الهجاء.

ـ حسناً يفعلن. صاحب المسّ لن يضيره الهجاء، لأنه مخلوق

بلا كبرياء. صاحب المسّ لن يضيره قطع اللسان، لأنه مخلوق لسانه ليس عضلة اللسان.

ـ ما أحلى هذا! يروق لي أن أسمع كلام صاحب المسّ حتّى لو كان لغواً، يروق لي أن أسمع ثرثرة صاحب المسّ حتّى لو كان في المهد صبيًا.

ـ صاحب المسّ، يا مولاتي، لا يشبّ عن المهد. صاحب المس صبيّ في المهد وصبيّ إلى الأبد.

ـ حسناً قلت. طفولة صاحب المسّ هي سرّ صاحب المسّ. لا يجب أن نثق في إنسان لم نرَ في عينيه طفولة. أليس هذا ما يقول الدهاة أنهم ورثوه عن أجدادهم الذين ورثوه بدورهم عن ناموس القبائل المفقود؟

تناول من الجراب قطعة كمأ كبيرة، بيضاء كرغوة الحليب، طازجة ينزّ منها الشذى. تشمّم عطرها قبل أن يقدّمها إليها قائلاً:

ـ الكمأ لا يفوح بالعطر. الكمأ يفوح برائحة العزلة. مولاتي أعلم بمعنى أن تفوح قطعة الكمأ بالعزلة. وصاحب المسّ لا يجد ما يهديه لصاحبة المسّ إلاّ قطعة العزلة!

تناولتها بكلتا يديها. تناولتها بامتنان كشفت عنه أناملها النحيلة الطويلة، الفاتنة، البيضاء بياض قطعة الكمأ التي احتوتها بين أناملها. تمتمت بوشوشة كأنها تميمة:

ـ سوف تعرف صاحبة المسّ كيف تكافىء صاحب المسّ على عطيّته!

ثم أدبرت. ولّته ظهرها فتابع قامتها المكابرة مخلّفةً وراءها عبيرها الغامض الذي يصيبه في كل مرّة بالدوار.

مرّ زمان قبل أن يلتقيا مرّة أخرى في خلوة الكمأ. لم يحدّثها عن قدر العزلة هذه المرّة ولكنه حدّثها عن سرّ الأثر. قال لها أن أثراً خفيّاً تنزّل يوماً في خفّ بعير ليقوده من تيه الدنيا إلى تيه الخفاء، ثم عرّج به من تيه الخفاء إلى تيه الدنيا من جديد. قال لها ما لم يقله لأحد. قال لها أنه لم يستشعر الضياع يوم ذهب خلف الأثر إلى التيه، ولكنه استشعر الضياع يوم تبدّت في الأفق أكواخ الواحة وانقطع به السبيل إلى الأثر. لم يفقد السبيل إلى الأثر في ذلك اليوم، ولكنه فقد السبيل ذاته. فقد قلبه. وما زال صدره جوفاً خاوياً منذ ذلك اليوم.

أمّا هي فتكلّمت قائلة أن أهل الصحراء يظنّون أن الأثر الذي يتعقّبنا أنبل من الأثر الذي نتعقّبه لأنهم لا يعترفون إلاّ بما زال، ولا يدرون أن الأثر الذي نتعقّبه هو الذي يحيينا لا الأثر يتعقّبنا، لأن الأثر الذي خلّفناه وراءنا شاهد على عبورنا، ولكن الأثر الذي يسير أمامنا دليلنا الذي يقودنا. لا يقودنا إلى وطن من الأوطان وإلاّ لما اختلف عن السبيل الذي احتفرته الهجرات، ولكنه يقودنا إلى الحنين.

سكتت ثم رددت بصوتها البحيح: «داء التائه حنين. وطن التائه ليس وطناً ككل الأوطان، ولكن وطنه الحنين!» فردّد بلا عقل: «بلى. الأثر يقود إلى الحنين».

في تلك الومضة حدث ما لم ينسه أبداً. حدث ما لم يكن من حقّه أن ينساه أبداً. فقد مدت أناملها الخرافية فأزالت النقاب حول

وجهها فجأة فرأى ما لا يجب أن يُرى. رأى سرّ الصحراء الذي جاهد عقلاء القبيلة لإخفائه عن أنظار الخليقة خوفاً عليهم من الحقيقة. بلى، بلى. لم يتكشّف أمامه الجمال في ذلك اليوم، ولكن تبدّت أمام عينيه الحقيقة. رأى بالعين تلك التميمة الغامضة التي لقّنها له كاهن الأجيال المقنّع برقعة الجلد والمسمّاة بلسان الأجيال: «تيدت». رأى «تيدت» فوجد نفسه في قلب الأثر. في صلب الحنين. فلم يحتمل القلب ولم يحتمل الصلب فارتجّ وسقط مغشياً عليه.

كان يستعيد دائماً بينه وبين نفسه ما ترويه الأجيال في ملحمة «تانّس» كيف كان القوم يتوسلون لربّة الحُسْن «تانّس» أن تكشف عن وجهها كلّما غاب القمر لتبدّد ببهائها الظلمات وتنير لهم الصحراء كي يتمكنوا من حلب النوق.

ولكن ماذا سيحدث لو استعاد القوم تقليد الأمس البعيد وطلبوا من حسناء اليوم أن تنزع النقاب عن وجهها لتنير بحسنها الصحراء؟

إذا كان حُسْن «تانّس» في الملحمة القديمة ينافس حُسن البدر فإن حُسن صاحبة النقاب ينافس الشمس. وإذا كان حُسن الحسناء الخرافية في ملحمة الأجيال ينير، فإنه على يقين أن حسن حسناء النقاب عندها لن ينير وحسب، ولكنه حرقاً سوف يحرق. كانت كلّما كشفت له عن وجهها تزلزل وارتجّ وترنّح ليسقط مغشياً عليه. حاول مراراً أن يستعيد سرّ فتنتها في خلواته، حاول أن يستعيد ملامح وجهها حتى يجد تفسيراً لسحرها، حتى يجد تفسيراً للزلزلة، ولكن بلا جدوى، فكان يروق له أن يداعبها أثناء عزلتهما في الخلاء قائلاً: «أحجبي عنّي وجهك حتّى أكلّمك!»، أو: «أحجبي عنّي وجهك كي أسمعك!»،

أو: «احجبي عنّي وجهك كي أراكِ!»، وكان أكثر ما يسلّيها قوله الأخير الذي حقّ لها أن تجد فيه مفارقة لا تخلو من سخرية فكانت تستلقي برأسها إلى الوراء ضاحكة فتتكشّف خصلات شعرها الكثيفة الفاحمة، ويزداد صدرها الناهد نفوراً واستكباراً، فتستولي عليه الحمّى، ويستشعر دنوّ الغيبوبة في الحال برغم أنها لم تكن تكشف له عن وجهها إلاّ في الآونة التي تشاء أن تستفزّه فيها أو في المرّات النادرة التي تهبّ فيها عليه رياح الحنين فيحتكم إلى وجهها، كما يحتكم عقلاء القبائل إلى وجه «تانّس» في القديم، ليتحرّر. يتحرّر من معتقل اسمه الصحراء ويذهب في رحلة إلى وطن الخفاء تلبيةً لنداء الحنين، إلى أن جاء يوم.

جاء اليوم الذي قرّرت فيه ألاّ تكتفي باستفزازه بواحة وجهها الذي اعتاد أن يحتكم إلى دنياه كلّما عصفت به رياح الحنين، ولكنها كشفت له عن شيء آخر، عن كنزٍ آخر، عن نهدها. ليس هذا وحسب، ولكنها هجمت عليه واحتوته بين ذراعيها حتى استشعر وجيب قلبها في صدره، في قلبه، في صلبه. ثمّ انكفأت عليه وضغطت بأنفها على أنفه وبدأت تستنشق أنفاسه بشهيق لجوج كأنها أفعوان الأدغال الذي تتحدّث عنه الأساطير. سحبت أنفاسه بأنفاسها حتى غاب عن الوعي مرّة أخرى. وعندما استفاق لم يجدها إلى جواره. ولكن طعم قبلتها الجنونية كانت من العطايا التي لم يكتب له أن ينساها مدى الحياة، وقد استعادها مراراً في رحلته التالية عبر أوطان هذه الدنيا، وعبر حسان الأوطان في هذه الدنيا.

وفي أحد الأزمان خاطبته بلهجة تصميم: «سوف أنتظرك!». لم

يفهم تماماً فأومأ مستفهماً. تأمّلته طويلاً من وراء حجابها الخفيّ قبل أن توضح: «لا يفلح في الصحراء قران لم يكبر فيه الرجل امرأته بعشر أو عشرين، كما لا يفلح في الصحراء قران لم تكبر فيه المرأة رجلها بعشرٍ أو عشرين، فتأمّل!». لم يتأمّل لأنه آثر أن تتأمّل هي نيابةً عنه فتشبّث بتلابيب الصمت، فسمعها تضيف: «إذا كبرت المرأة رجلها في قران لم تكتف بأن ترى فيه حميمها، ولكنها سوف ترى فيه وليدها أيضاً، فيشتري فارق السّنّ بينهما بليّة الخصام، وإذا كبر الرجل امرأته في قران لم يكتفِ بأن يرى فيها حميمته، ولكنه سوف يكتشف فيها طفلته أيضاً فيشتري فارق السّن بينهما الخصام». سكتت. التفتت صوب الخلاء المغمور بفلول السراب قبل أن تضيف: «قران الأنداد لا يفلح أبداً، لأن الناموس القديم هو الذي نصّب كلّ ندّ خصماً لدوداً لكلّ ندّ!».

تابعها بفضول فرأى في وجهها المحجّب المشدود إلى الخلاء الأبدي كاهنة أجيالٍ مهجورة، معزولة، تقرأ على الأخلاف وصيّة الأسلاف. فاض قلبه بشفقة. شفقة من ذلك الطراز الذي يوحّد بين الكائنات بآيات وفاق خفيّ لأن العزلة هي القَدر لكليهما لا الدنيا.

قال لها يومها مداعباً كي ينتشلها من رحلة عزلتها: «إذا عاهدتك فهل تعرجين بي على وطن الحنين في رحلتنا إلى وطن الجنّ؟!».

ولكنها قالت بوجوم من ازداد إيغالاً في رحلة العزلة: «بين وطن الحنين ووطن الجنّ لا فرق!». قال بحزن: «وطن الحنين هو وطني الوحيد!». قالت: «لو لم يكن وطن الحنين وطنك لما اخترتك!». تمتم: «حقًّا؟»، فأجابت بيقين: «إذا لم يمسسني صاحب المسّ فلن

أستسلم لمسّ رجل!». مدّ يده ليتلقّف أنامل يدها النحيلة فوجدها ترتجف. مدّت يدها الأخرى واحتوت يده الأخرى. تشبثت بكلتا يديه وردّدت يقينها كأنها تتلذّذ بترديد تميمة: «إذا لم يمسسني صاحب المسّ فلن أستسلم لمسّ رجل!».

ولكن عمر العهد لم يعمّر طويلاً مثله في ذلك مثل كلّ أمر في الصحراء. لأن الأوّلين كانوا قد اكتشفوا من قديم الزمان أن الإنسان لا يكبّل نفسه بعهد إلاّ ليخون عهداً آخر. كما لا يتحرّر من عهد إذا لم يخن عهداً آخر. وصاحب المسّ باستسلامه لإغواء الحُسْن نسي عهداً آخر أقدم عهداً لم يكن له وسم المسّ سوى علامة. وكان عليه أن يعلم أن النسيان هو اللعنة الأرذل من كلّ لعنة عرفتها الصحراء ليلة خرج له كاهن الأجيال المقنّع برقعة الجلد وقرأ على رأسه صحيفته الأولى: «تيدت»[1] دون أن يضيف بنت شفة على هذه الكلمة الخفيّة التي استعارت على لسانه معانٍ أُخر أكثر غموضاً من معنى «الحقيقة» التي تجري على ألسنة القبائل.

كرّر هذا الساحر تميمته ثلاث مرّات قبل أن يشهر في وجهه عصا كان يتوكّأ عليها. لم يضربه بها ولكنه اكتفى بأن شيّعها أمام عينيه فتحوّلت إلى حيّة حقيقية بلسان شرهٍ مشطور إلى نصفين وعينين خفيتين تومىء كل منهما بالوعيد والإغواء. أطلقت في وجهه فحيحاً مميتاً فتبدّت أنيابها المشحونة بالسموم فانداح إلى الوراء بحثاً عن مفرّ. ولكنه اكتشف أنه محاصر حصاراً يستحيل معه الإفلات لا إلى الوراء

---

(1) تيدت: الحقيقة!

ولا إلى الأمام ولا إلى أي مكان. حاول أن يستصرخ الدنيا بصوته ولكن الصوت مات في حلقه.

لامس لسان الحيّة وجهه فأغمض عينيه انتظاراً للدغة الناب المميت، فسمع صوت العجوز القديم قدم الزمان يتساءل بعبارة صارمة: «هل فهمت؟». فأجابه بإيماءة مذعورة من مقلة العين: «فهمت!».

مدّ كاهن الأجيال يده الملفوفة في التجاعيد وسحب جرم الأفعى فتحوّلت بين يديه عكّازاً من جديد. قال بابتسار: «احترس!».

ثم توعّده بسبّابته قبل أن ينقشع. اختفى في تلك الليلة ليعود في الليلة التالية ليخضعه لذات الامتحان العسير فهرع إلى عرّاف القبيلة طلباً للنجدة. استمع العرّاف لروايته باستخفاف، ثم تسكّع ببصره في ربوع الخلاء قليلاً قبل أن يبدأ في فكّ الطلسم. قال له أن الحيّة هي سرّ الدنيا، هي سرّ الصحراء.

إذا ذهبنا بها إلى المرأة صارت شهوةً تلدغ، وإذا اكتنزناها في قلوبنا انقلبت شهوة أخرى تقود إلى ما يسمّيه الدهاة خلاصاً، أو حقيقة. ثم سكت قليلاً قبل أن يلتفت إليه ليهمس في أذنه: «هل كبّلتَ نفسك بعهد يوماً؟» لم ينتظر جوابه. عاد يسرح في الأفق. قرأ فيه نبوءة: «لا تعاهد أحداً. لا تكبّل قلبك بعهد حتّى لو كان فيه الخفاء طرفاً. مَنْ كبّل نفسه بالعهد لن يعرف السعادة!». أعقب قوله بضحكة خبيثة ذات معنى.

ولكن صاحب العهد لم يتخلّ عن قصاصه. فقد أطلق سراح

الحيّة الرهيبة لتجري في أثره في كل مكان وتلاحقه في كل زمان. تلاحقه في زمن نومه، كما تلاحقه في أزمان يقظته. بل كثيراً ما تتصل مطاردات الليالي لتتواصل بمطاردات النهار. فكانت القبيلة تتعجّب وهي تراه راكضاً بين المضارب لا يلوي على شيء، فيضرب أهلها رجالاً ونساء الأكف بالأكف ليعبّروا عن أسفهم لصاحب المسّ الذي أبى الخفاء إلاّ أن يصيبه بمسّ آخر بالإضافة إلى مسّه الأوّل.

ولكن الكلّ أجمع أنه قاوم جنونه ببسالة الأبطال، ولم يستسلم لقدره إلاّ بعد أن اعتلّ ووهن ووقع فريسة الحمّى. رقد زمناً طويلاً، وعندما تشافى ذهب للقاء حميمته الجنيّة في السهل المجاور. ويُروى أن لقائهما في ذلك اليوم لم يدم طويلاً. فقد عاد على عقبيه بعد قليل كأنه أضاع شيئاً. كأنه أضاع في الرحلة القصيرة قلبه. ذهب للقاء الحميمة بقلب وعاد من اللقاء بقلب مخلوق آخر. ولهذا لم يستغرب القوم أن يشدّ الرحال ليهجر نجوع القبيلة في الحال. انطلق في رحلة إلى جهة مجهولة.

أمّا المعشوقة فلم يطل بها المقام في النجوع أيضاً. اختفت من المضارب بعد رحلة الحميم بأيّام فلم يرها أحد بعد ذلك إلى الأبد. وقد أكّد الدهاة أنها لم تحتمل الحنث بالوعد فالتحقت بقبيلة الأم في وادي الجنّ. وروى أصحاب القوافل أنها خرجت لتحيّتهم هناك يوم نزلوا أضيافاً على أهلها في ربوع الوادي المحرّم «آوال».

8 ـ تجربة الدّهاء

«لا وجود لدهاء خارج الحقيقة».

(غوته)

يوم وقف أمامها ليقول لها أنه لن يستطيع أن يفي بالوعد لأن نداء «تيدت» في قلبه أقوى من العهد، ومن الحبّ، ومن الحياة نفسها، لم يكن يعلم أين يمكنه أن يخفي عاره لو لم تهبّ لنجدته الذاكرة. فقد استعاد وصايا شقيق أمّه وهو في طريق العودة إلى المضارب، فقرّر أن يلبّي النداء.

خرج ظنّاً منه أنّه يفرّ من هزيمته ويلتحق بقبيلة الخال في البعد، ولم يدرِ أنه لم يخرج إلاّ تنفيذاً لمشيئة قدره، ذلك القدر نفسه الذي كبّله بوهق البحث عن حقيقته يوم ختم على قلبه ببصمة المسّ.

كان شقيق الأم يبعث له بالوصايا مع العابرين وأصحاب القوافل كي يقبل عليه لا تلبيةً لنداء الدّم، ولكن عملاً بوصايا الناموس المفقود الذي سنّ للأجيال شريعتها القديمة التي نصّبت من سليل الأخت بديلاً لنبوّة الإبن، بل ورفعته في سلّم السلطان درجات حقّ له بموجبها أن يرث من شقيق الأم صولجان الحكم بدل الابن، لأن عرف «آنهي» الضائع هو الذي قضى منذ بداية البداية بسحب الاعتراف من كل ابن لم تنجبه الأخت. وليس له أن يستهجن هذا الحكم وهو الذي سمع مراراً روايات الدهاة التي تتحدّث كيف تعشّق الأوائل شقيقاتهم لأنهم

لم يجدوا في رحاب الصحراء نساء غيرهنّ فاتخذوا منهنّ قرينات أنجبوا من أرحامهنّ ذريّةً أنقذت القبائل من هول الزوال. وهو عرف ما زال شائعاً إلى عهد قريب في بعض القبائل التي تعيش في جبال تاسيلي بسبب عزلتها ومناعة أرضها حسب ما تتناقل الألسن. وهو حكم وجد له الأخلاف سنداً في ملحمة الأجيال «تانّس» التي تروي كيف وهبت هذه الحسناء الداهية حياتها ثمناً لإنقاذ «وانس» (وفي روايات أخرى «أطلانتس») من كلّ المكائد التي تعرّض لها لا لأنّه شقيقها برباط الدّم، ولكن لأنه حميمها بميثاق الروح. وما يزال أبناء القبائل يعتنقون استنكاراً ورثوه عن أسلافهم لاقوا به السليل الأوّل الذي خالف الوصية وتخلّى عن أحضان الشقيقة الأولى لأنه وقع في غرام فتاة حسناء نزلت في أرض الجوار صحبة أهلها فوهبها قلبه قبل أن يهبها جسده. ولم يكتشف الشقيّ أنها من بنات الجنّ إلاّ بعد فوات الأوان. فما كان من حكماء القبيلة إلاّ أن احتكموا إلى حَرَم الناموس ليأتوا من هناك بالوصيّة التي أباحت لهم تشريد ذريّته التي عاد بها إلى رحاب القبيلة بعد اغتراب أعوام هلكت فيها قرينته. لأن كلّ ذريّة هي ذريّة أغرابٍ ما لم ينجبها السليلُ من صلب الأخت.

ولكن الناموس أخفق في ترويض أهواء أبناء القبائل مع تدفّق الأيام. لأن رسول العشق المصاب بعاهة العماء جرّ في ركابه أبناء كثيرين (كان عدد كبير منهم أبطالاً أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن حرمات ديارهم) فذهبوا ليناموا في أحضان حسان الأغراب سواء أكانت هذه الحسان من بنات الإنس أم من بنات الجنّ. فلم يكن أمام وصاة الناموس غير الاعتراف بالأمر الذي وقع. ولكنهم أجمعوا على

استبقاء الإرث في يد سليل الأخت الذي لا يأتيه الباطل، ونصّبوا من الإبن الذي أتى من رحم الأخت بديلاً للابن الذي أنجبته امرأة الأغراب. فلم يكن أمام الأجيال إلاّ الامتثال. وكان من نتيجة ذلك أن وجدت القبائل نفسها تتخلّى عن ذريّة أنجبها رجالها من بنات الأغراب، وتتبنّى ذريّةً أنجبها رجال الأغراب من أرحام بنات القبيلة. وقد تسبّب تقيّد القبائل الأعمى بهذا الناموس في إرباك حياة الصحراء كلّما دبّ بين الفرقاء خلاف أو نشبت بين العشائر حروب. لأن الفرسان الذين ينتمون بأصولهم الأمومية إلى أرومات القبائل المعادية كانوا ينشقّون عن قبائل الآباء لينضموا إلى قبائل الأخوال ليرفعوا أسلحتهم في وجوه آباءٍ لم يشعروا نحو قبائلهم يوماً بأي انتماء. لأن شقيق الأخت هو الأب الحقيقي الوحيد الذي يستحقّ في العرف الفوز بالولاء.

وكان أشقّاء الأخوات يفرّكون أيديهم ابتهاجاً كلّما بلغهم نبأ ميلاد وليد وُلد من بطن الأخت ليبدأوا سلسلة من التدابير التي تهيء لهم فرص استقدام الوريث للإشراف على تربيته وتلقينه قيم البطولة تمهيداً لاستعادته. هذا في حين يضرب هؤلاء الأكف بالأكف كلّما أنجبت لهم قريناتهم أبناء لأنهم يعلمون علم اليقين أنهم لم ينجبوا الأبناء لأنفسهم، ولكنهم أنجبوا ذريّةً لقبائل نسائهم!

وشقيق الأم الذي أرسل في طلبه مراراً لم ينتم بالنسب إلى قبيلة الأب، ولكنه رجع بأصوله إلى قبيلة ربّة الصحراء الكبرى التي انتقلت عبادتها إلى أبعد الأمم، لأنّ اسمها «تانيت» إنما يعني بلغة الصحراء «ربّة التوحيد» التي أنجبت نفسها من نفسها قبل أن تنجب من جوفها

الصحراء وأبناء الصحراء. وسلالتها ملّة سكنت الصحراء الكبرى الوسطى المسمّاة في لغة الأجيال «آزجر» تحت اسم آخر مستعار من اسم الربّة هو «إتران يت» التي تعني: «نجوم الربّة يت، أو تانيت» وهم أبناء يُروى أنهم تخلّوا عن أسمائهم جميعاً واختاروا أن يطلقوا على أنفسهم اسماً واحداً هو: «إتران يت» أو «كيل يت» (أبناء الربة يت» تيمناً باسم ربة الخليقة الأولى وإكباراً لرحمتها. ويُقال أنهم أوّل من علّم القبائل أسماء الأنجم كلّها وجعلوها علامات يهتدي بها السابلة والعابرين، لأن تلك الأنجم لم تكن في عرفهم أنجماً، ولكنها وطنهم الأوّل الذي حرموا منه يوماً، وسوف يعودون إلى رحابه يوماً أيضاً.

ويقال أنهم ظلّوا يحملون اسمهم الوحيد ذاك إلى أن اقتحمت أمم الدخلاء صحراءهم، وتبلبلت الأرض بألسنة الغرباء فاضطرّهم الاختلاط إلى التخلّي عن الاسم الواحد وتبنّي أسماء استعاروها من أسماء الأنجم السماوية بدأوا يطلقونها على أنفسهم لتمييزهم عن الأغيار الذين اعتادوا أن يتخذوا لأنفسهم أسماء الكائنات الأرضية من حيوانات ونباتات وحتى جمادات، ليقينهم بأن كلّ أنجم السّماء ما هي إلاّ أبناء ينتمون إلى سلالة ربّة التوحيد الأولى «تانيت» أو «يت»، أو «نيت» مثلهم تماماً.

ولا ينسى كيف ظلّ أكابر القبيلة يدلّلونه ويثنون على نسبه دوماً مردّدين: «هنيئاً لولدٍ انتمى من جهة الأم للربّة، هنيئاً لولدٍ انتسب من جهة الأب للربّ». وكان يستمتع بمواويل الصبايا عندما يبدأن في التغنّي بالنسب إلى سلالة الأم، فيردّدن في الليالي التي يستوي فيها

القمر بذراً اللحون التي تقول أن الأم في دنيا الصحراء ركيزة، ولكن الأب في دنيا الصحراء ركن. الأم في رحلة العراء حضور، ولكن الأب في رحلة العراء غياب. الأم في مسير العبور «تيدت»، ولكن الأب في مسير العبور خيال. الأم في أسفار البلبال خلود، ولكن الأب في أسفار البلبال باطل. وكن ينشدن في أنساق شجنية أخرى أشعاراً تقول: «أينما التفتنا وجدنا إلى جوارنا أمّاً، ولكن من يجرؤ على القول أننا إذا التفتنا وجدنا إلى جوارنا أباً؟».

وكان أهل العرفان يسردون على الأسماع سيراً كثيرة تروي كيف ارتكب أشقّاء أمّهات امتلكوا في القبائل زمام الحكم فظائع في حقّ أبناء الشقيقات خوفاً من أن ينتزعوا من أيديهم زمام سلطانٍ أقرّه لهم الناموس الضائع. ولم يخطر له يوماً على بال أن تكون استجابته لنداء الخال رحلةً لا تختلف عن رحلات أقرانٍ كثيرين استدعاهم الأخوال لا ليكبروهم أو ليجبلوهم على تعلّم ضروب البطولات كما يقضي ناموس الأجيال، ولكن لكي يستدرجوهم ليكيدوا لهم أو لكي يمتحنوهم ليختبروا فيهم الظمأ إلى السلطان.

وقد ظنّ المسكين أن الأعوان الذين خرجوا للقائه سوف يأخذونه من يده إلى خباء السلطان ليمثل بين يدي الإنسان الذي يحتل مكان الأب الحقيقي في وجدان كل سليل صحراء بدل الأب المزوّر الذي استهان بشأنه الناموس استهانة جعلت الأجيال تستنكر وجوده إلى جوار الابن، بل وتنكره إنكار الغربان لفراخها ساعة خروجها من قمقم البيض. ولكن هؤلاء الأشقياء جرّوه في سبيل آخر أبعد ما يكون عن خباء الزعيم. أخذوه في رحلة إلى خلاء مجاور مدّعين كذباً أنه سوف

يفوز برؤية الأب الحقيقي الذي خرج في حملة لصيد الغزلان في مرعى هناك.

زحفت على الصحراء الظلمات فباتوا ليلتهم هناك. كان منهكاً بسبب الأسفار مضعضعاً بفعل الجوع فنام ما أن حطّوا الرحال ونزعوا عن البعائر أثقال السفر.

أمّا أعوان الزعيم الأشقياء فلم يغمض لهم جفن طوال الليل لأنهم انشغلوا بتدبير الحيلة التي وضعها مولاهم دَيْناً في أعناقهم لتكون لسليل الأخت أوّل شَرَك: تسلّلوا إلى السّهل المجاور ونثروا في قاعة المعشوشب رذاذاً من مياه جلبوها معهم في قربة الجلد، ثم أخرجوا من الجراب ساق غزال اجتثّوه من طريدة ذبيحة وبدأوا يطبعون بحافره أرض السّهل حتّى مطلع الفجر. بعدها ذهبوا ليهجعوا إلى جوار ضيفهم حتّى إذا حلّ الشروق نهضوا وتسكّعوا برفقة سليل الأخت في العراء المؤدي إلى السهل.

نزلوا السهل المحروث بآثار الغزلان فساءلوا السليل بالقول: «ماذا يرى ابن الأخت الذي أقبل من أوطان البُعْد لينعم بلقاء خاله الزعيم؟». فتفحّص صاحب المسّ المكان، وتأمّل الأثر بعين المسّ لا بعين البصر قبل أن يجيب على لغة الأحاجي بلغة الأحاجي: «يرى ابن الأخت في السّهل ماء لم تستنزله على الأرض سماء. يرى ابن الأخت في السّهل أثراً لم تطبعه على تراب السهل روح!».

تبادل الأعوان نظرات الدهشة خلسة. ثم أومأوا بعماماتهم إيماءات ذات معنى قبل أن يهمهموا بأصوات مجهولة ليعلن أكبرهم

سنًّا: «أحسن ابن الأخت. هذا جواب يليق بابن أخت زعيم حفر بسيفه في الصحراء البطولات فأخضع القبائل، وحيّر بدهاء تدبيره الآفاق فاعترفت له حتّى أمم الجان بالسلطان!».

ظنّ أن فوزه في الامتحان سوف يكون نذيراً برؤية الأب الأبدي الذي سمع من الأغيار عن سيرته الأساطير، ولكن هيهات!

فالأوغاد الذين نصّبهم على رأسه رسلاً أبوا إلاّ أن يجرّوه إلى امتحان آخر أعسر من الامتحان الذي سبقه. فقد ساروا به عبر دروبٍ وعرة استعصت على العبور. وعندما بلغوا سفح الجبل كان زاد الماء قد نضب من قِرَب الجلد فأزاحوا الأثقال عن الدواب في نيّة لقضاء الليل في حضيض الجبل الكئيب المفروش بحجارة شرسة، سوداء، أشدّ كآبة، ولا تعد في استكبارها بشيء غير الوحشة والضياع والهلاك ظمأً.

هناك استغفله الأوغاد: تركوه حتى نام فانسلّوا في ظلمة الليل وسلكوا درباً عسيراً مستدلّين بشجيرة وحيدة تتشبّث بخاصرة الجبل وتوحي أوراقها الخضراء بوجود نبع ماء بالقرب. تقدّمهم داهيةٌ أسنٌّ، يعقد يديه وراء ظهره، وينكفىء بوجهه إلى أسفل، كأنه يتتبّع أثراً مفقوداً، أو يفتّش في فرشة الحجارة المعادية عن علامة تقوده إلى مخبأ الكنز. اجتاز بعيداً، ولكنه عاد على عقبيه ليحوم حول الشجيرة الجبليّة الوحيدة مغمغماً بلعثمة كأنّها تعويذة: «أينما أطلّت أطلال فثمّة كنز، أينما انتصبت نبتة فثمّة ماء!».

جانَبَ الشجيرة جنوباً، تسكّع شرقاً، طاف حولها شمالاً، ثم انحرف غرباً. تشمّم الهواء. تسمّع الصمت. تقدّم خطوتين. صعد

صخرة. تشبّث بالصلد بكلتا يديه. أطل على جرف. في غار منيع يشرف على الجرف الملفوف بالظلام تدفّق النبع بهسيس مكتوم كأنه استسرار الكاهنات أو وشوشة العشّاق.

نهلوا من النبع. تزوّدوا بالماء في بطونهم، ولكنهم لم يحملوا معهم في طريق العودة ماء. قال الداهية الأسنّ: «هذه الشجرة منذ الليلة لنا علامة. سوف نرى بأي حيلة سيداوي سليل الأخت البليّة!». أعقب ذلك بضحكة ماكرة قبل أن يخطو لينزل السفح يتبعه الأتباع كأنهم قطيع غزلان.

في الصباح استيقظ سليل الأخت ليجد فمه يابساً كقطعة حطب، وجسده واهناً كخرقة بالية، فهتف يطلب الماء بلجاجة الطفولة قبل أن يستعيد عقله ويتذكّر أن زاد الماء قد نضب منذ أيّام. وبرغم تضعضع العقل إلاّ أن مسلك الرجال لم يغب عن باله: كانوا يتجادلون بأصوات عالية، ويتحاججون بحيويّة لأتفه الأسباب، ويتراكضون هنا وهناك كالممسوسين أو أهل وجْد لوّعتهم الألحان، فساورته بشأنهم الشكوك. كلاّ، كلاّ. أجساد هؤلاء الأوغاد لم تذق طعم الظمأ. هذه ليست أبدان أهل الظمأ. هذه ليست أبدان رجال. هذه أبدان جمال رتعت سهلاً، ووردت نبعاً، فامتلأت مياهاً وكلأ وشهوةً إلى قرع النوق. كلاّ، كلاّ. وراء الأكَمَة ما وراها. لا بدّ أن الأوغاد اهتدوا إلى مكيدة جديدة للقضاء عليه. لا بدّ أن هذه الزمرة من الأشرار قررت أن تميته بالظمأ في حين وجدت السبيل لتعبّ الماء في غفلةٍ منه. هذا يقين يستطيع أن يهتدي إليه حتّى الطفل. هذا يقين لن يحتاج اكتشافه إلى مسّ.

ولكن.. أين أخطأ يا ترى حتى وقع ضحيّة المكيدة؟ كيف استطاع الأشقياء أن يستغفلوه؟

تمهّل. تأمّل، ولكن العقل زعزعه الظمأ فاستلقى على القفا ضعفاً ويأساً. أطلق أنيناً موجعاً وهو يعتصر ذاكرته ولكن قواه لم تهدِه إلى شيء. غرس يديه في التراب. ضرب رأسه على الحجارة التي تفترش الأرض، اعتصر الذاكرة في محاولة بطولية لاستدرار الإلهام. ولكن عبثاً. استسلم أخيراً. هجع مغمض العينين وعندما فتحهما توهّم أنه غفا. في تلك الغفوة اللذيذة الشبيهة بالحلم (لأنها لم تستغرق يقيناً أكثر من غمضة) عاد بالنبوءة: الحلم! النوم! النعاس! السرّ في النعاس. لا بدّ أن يكونوا قد احتالوا عليه وهو نائم. استغلّوا ضعفه أمام سلطان النوم فكادوا له وهو نائم. عليهم اللعنة! عليهم اللعنة وعلى من بعثهم رسلاً لكي ينكّلوا به! لن يعترف بعد اليوم بالخال أباً! سوف ينكر ناموس الأجيال منذ اليوم برغم أنه يعلم أن ذلك خطيئة! سوف يعلن العصيان منذ اليوم وليكن ما يكون. سوف يقترف الخطيئة لأن صاحب المسّ لا بدّ أن يخالف وصايا الناموس إذا شاء أن يشتري للأجيال تعويذة «تيدت»[1] التي لا يكفّ الخلق عن التغنّي بها. صاحب الرسالة وحده يحقّ له أن ينكر الناموس كي ينقذ الناموس. صاحب المسّ وحده حقّ له أن ينكر وصايا الناموس كيف يكتشف حقيقة الناموس. حسناً يا زمرة الكيد والشرّ. سوف أنكر النوم كما أنكرت الناموس. سوف أنكر كل شيء يجعلني عبداً تحت رحمة عبد

(1) تيدت: الحقيقة (لسان الطوارق).

لا يرحم. سوف أنكر النوم إلى الأبد إذا كان سرّ مذلّتي في نعمة النوم. سوف نرى أي السلاحين أقوى: سلاح سلطانٍ يريد أن ينصّب من السلطان حقيقة، أم سلاح الحقيقة التي تريد أن تقلب السلطان باطلاً وتنصّب الحقيقة على الصحراء سلطاناً؟

النّوم، إذن، منذ اليوم عار. النوم يجب أن ينقلب منذ اليوم خطيئة. لن يعرف بعد اليوم للنوم طعماً.

ولكنه، عندما حان ميعاد النوم نام. نام برغم العهد، وبرغم اليقين الذي صوّر له النوم عدوًّا، بل أشدّ عداوةً من هؤلاء الأعادي الذين جاءوا ليكيدوا له ويهلكوه. نام لأن النوم سرّ دسّته الأقدار في الدّمّ ولا سبيل لمنازلته إلاّ بالتنصّل من الدّم، أو بالتحرّر من الجسد حيث يندسّ السرّ، ولا سبيل لإنكار النوم إلاّ بإنكار الجسد كلّه.

ولكن كيف استطاع الأشقياء أن يحتالوا على سلطان مارد وكريه وفوق ذلك داهية كالنوم؟

لا بدّ أنّهم استخدموا مراهم الأعشاب. لا بدّ أنهم استخدموا عقاقير الأسحار. وإلاّ لما استطاعوا أن يغلبوا هذا المارد الذي لا يغلب. لقد شعر بالغثيان عندما استيقظ في الصباح ووجدهم نياماً بعد عودتهم من رحلتهم من ربوع الماء. نسي حتّى الظمأ، نسي العجز. نسي كل شيء واستشعر إلى جانب الغثيان كراهة لا إلى الأعداء، ولا إلى الزعيم الذي سخّرهم، ولكنه كره نفسه. استولى عليه اشمئزاز من نفسه حتّى انكفأ على الأرض ليتقيّأ. كانت الأمعاء خاوية فأخفق لأنه لن يستطيع بسبب الخواء أن يتقيّأ حتّى الأمعاء نفسها، لأن لا شيء

يتزحزح في هذه الشكوة المنفوشة التي يسمّونها جسماً إذا غاب منها سرّ اسمه الماء.

بلغت الكراهة مداها فبكى. تحامل على نفسه وتنحّى عن الموقع جانباً ليبكي. بكى عجزاً وحنقاً على نفسه التي خذلته بالنوم. خذلته بالنوم فخسر الرهان. لا شيء يؤلم كما تؤلم خسارة الرهان مع الرجال. وإذا كان صاحب البطولة يتألم لهذه الخسارة مرّة فإن صاحب الوصيّة يتألم لهذه الخسارة مرّات. لأن صاحب البطولة يتألّم خوفاً من العار، ولكن صاحب الوصيّة يتألّم خوفاً من فقدان الوصيّة، خوفاً من فقدان الحقيقة. وفقدان النَّفس، في عُرْف صاحب الوصيّة، أهون من فقدان الوصيّة. أهون من فقدان الحقيقة.

ويبدو أن الألم الذي يوجع البدن ويعذّب الروح يتسلّل إلى أبعد فيقدح شرراً تعجز حتّى أعجوبة العقل عن تحقيقه لأنه شرر لا ينبثق إلاّ من ظلمات ذلك المجهول المسمّى في لسان أصحاب الكهانة وَحْياً!

تكتّم على وحيه في زاوية الخباء الذي نصّبوه في الخلاء ليحتموا به من نار النهار وانتظر. انتظر حتّى حلّ الليل ففرغوا من هرجهم ومزاحهم ومجادلاتهم فهجعوا. هجعوا وعيونهم تنطق بشماتتهم به. شماتة خفيّة ولكنها لا تخفى على صاحب البليّة. كانوا على يقين أنه سيقضي نحبه ظمأ بعد ليلة أخرى أو ليلتين دون أن يستطيع مخلوق أن يتّهمهم بقتله. كانوا يتباهون خلسةً بدهائهم دون أن يخطر ببالهم أن الدهاء يغلبه الإلهام. لأن الدهاء كنز الدنيا، ولكن الإلهام كنز السّماء.

انسلّ ما أن اطمأن إلى أنهم ناموا وزحف إلى نعالهم في مدخل الخباء. تناول من الأمتعة قطعة شحم كانوا يمسّدون بها وعاء الطعام قبل الطهو وشرع يمسّد بها النعال الجلدية من الجهة السفلى. مسّد القطع كلّها حتى فاحت منها رائحة الدّهن فأعادها إلى مكانها وعاد إلى فراشه ونام. استسلم للسرّ الذي يسري في دم البدن باسماً. لم يكن ببسمته الغامضة يسخر من صحبان الكيد الذين يهجعون إلى جواره بقدر ما كان يستهزىء بغول النوم الذي صار للأعداء عوناً عليه بدل أن يكون له عوناً على الأعداء.

في الصباح وجدهم نياماً بعد عودتهم من رحلتهم الليلية السرية فخرج إلى العراء متظاهراً بقضاء حاجته حتّى لا يستثير شكوكهم. في الخلوة الحجرية المجاورة فتّش عن صديقه القديم: الأثر. فتّش عن أعجوبة الأثر التي أنقذته يوماً من جوع وآمنته من خوف، فهبّ لنجدته الأثر. هبّ لنجدته في الحال لأن الإلهام الذي ألهمه حيلة الدّهن لم يكن سوى رسالة الأثر الذي عرفه يوماً ولم ينسه منذ ذلك اليوم أبداً.

لقد حاول أن يتتبّع أثرهم منذ اكتشف حيلتهم، ولكن فراش الحجارة منع عنه أي أثر لوقع أقدامهم على الأرض فاحتكم إلى المجهول الذي بعث له بالأثر من دنيا الخفاء رسولاً.

لقد كافح اللؤماء لإخفاء الأثر عنه حتّى لا يكتشف معقل الماء. ولكن البلهاء لم يدركوا عندما داسوا على الحجارة في رحلة الليلة الأخيرة إلى الماء أن نعالهم المدهونة بقطعة الشحم سوف تكشف أمرهم وتردّ كيدهم إلى نحورهم. لم يكن في نيّته أن يطارد أثر الدهن على الحجارة الفظيعة منذ البدء لاستحالة تفقّد بصمة الدهن على

الصلد لمسافات طويلة، ولكن الرهان كان على جيوش النّمل التي يعلم أنها سوف تتنادى لغزو الأثر لتصير له في رحلة البحث هي الأثر بدل الأثر.

اقتفى أثر النمل على الحجارة حتى بلغ موقع الكنز. نهل من ماء النبع، وتغسّل بالغمر جيّداً، ثم هجع على صخرة وشرع يستوحي. طاف الأركان، وبلغ في رحلته الأوطان، وعرّج في طريق العودة على خلاّن الإنس والجان، فخرج للقائه كاهن الأجيال، المقنّع بجلد الغزال، فأومأ له بتلك الإشارة التي لم تخطر له على بال. فما كان منه إلاّ أن فزّ من هجعته، وقام إلى الشجرة التي كانت لعصبة الأوغاد إلى الماء علامة هداية، فاجتثّها من جذورها ورمى بها في هاوية الجبل المكابر قبل أن ينطلق. لم ينسَ أن يستزيد من الماء قبل أن ينطلق.

انطلق في الاتجاه المعاكس. نزل جناح السفح الآخر فوجد نفسه في وادٍ مشطور بسيف رملي أتت به رياح الجنوب في مواسم حملاتها على صحراء الشمال فوجد الأثر في انتظاره. كانت أخفاف ناقة يتبعها حوارها الوليد مطبوعة على الوعوثة بوضوح شديد فأيقن أن الناقة قد عبرت الوادي البارحة، وربما فجر اليوم، فتذكّر الخفّ الحميم الذي أنقذه يوماً من التّيه، فتحرّك وراء الأثر.

كان يعلم أن الناقة لن تخرج في رحلة إلى أرض لا وجود فيها لماء. وكان يعلم أيضاً أن الناقة التي يتبعها حوار رضيع لن تخرج في طلب الماء في مكان يبعد كثيراً.

ظنونه لم تكذّبه. لأنه أدرك الناقة قبل غروب الشمس فرضع من

حليبها حتى ارتوى، ثم أطلق سراحها وتحرّك خلفها. كانت تتوقّف بين الحين والآخر لترضع حُوارها. ثم تنطلق بخطى ثابتة، وئيدة، نحو وطن المجهول.

لم تتوقف الليل كلّه برغم لهفتها على وليدها، ولكنه لم يشكّك أبداً في حكمتها، لأنّه عرف من الرعاة أن الصحراء التي تقطع من شاء أن يقطعها نهاراً يستطيع عابرها أن يقطعها بالمسير ليلاً.

في الصباح نزل وادياً عامراً بالنّبوت والشجر والقطعان. هناك وجد رعاةً ما لبثوا أن هرعوا لملاقاته ليكتشف أن أكبرهم سنًّا إنّما يعود بالنسب إلى قبيلته.

عاد إلى ربوع قبيلته ليسبقه هناك نبأ هلاك زمرة الشرّ ظمأً بعد أن فقدوا السبيل إلى نبع الماء!

9 ـ النّزوح

«السبيل المفروش بالورود، لن يؤدّى يوماً إلى المجد».

(لافانتين)

غاب الخطر فأقبل الحنين.

لم يهنأ بعودته إلى رحاب القبيلة، ولم ينعم بوجوده بجوار الأم أو الأب (الذي لم يتوقّف عن ممارسة أسفاره الأبدية كما يمارس الكهنة الصلاة)، ولكنه استشعر خواءً، ثم حزناً، ثم استفحلت أعراض الدّاء: في عينيه تبدّى كلّ شيء وهماً، همًّا، اغتراباً. كأن الناس استبدلوا بيد أهل الخفاء ولم يعودوا الملّة نفسها التي عرفها يوماً. حتّى ألسنتهم انقلبت رطانة مبهمة تستهجنها الأذن بعد أن كانت شعراً يهفو لسماعه القلب قبل أن تتلذّذ بسماعه الأذن. حتّى الصحراء السمحاء، الغامضة، الخالدة في سماحتها وغموضها ووعودها، عبست في وجهه ورآها كيف تنسلّ لتتخلّى عن سجيّتها وتفرّ من نفسها. تسلّلت عزلته (التي رآها يوماً قريناً يحلّ في الأشياء والكائنات ليتهدّده من موقعه هناك) وتنزّلت في القلب ففقد السكينة. لم يعرف ما الذي عليه أن يفعله بعزلته، ولا كيف سيحتمل وطن هجرته الصحراء، وأي سبيل يستطيع أن يستردّ به قلبه المفقود، فخرج يحوم بين النجوع غائباً غياب شقيّ أبله، ظامئاً ظمأ عابر ضلّ السبيل، جائعاً جوع السنين. فما كان من الأم إلاّ أن هرعت إلى الساحر. ولكن الساحر دسّ يديه

في جوف التراب قائلاً: «إبنك أصيب بداء الحنين، ومداواة داء الحنين مهنة العرّاف لا الساحر!»، فهرعت إلى العرّاف الذي حدّق في الفراغ طويلاً قبل أن يوصي للعليل باللحون.

انعقدت حلقة الصبايا في مساء أحد الأيام في الخلوة المجاورة للأجنبية، ولم يكتب لها أن تنفضّ إلا بعد مرور أيام، مما اضطرّ النساء أن تتبادل على ارتياد الحفل ليل نهار حتّى لا ينقطع حبل اللّحون فينتهز الجنّ فرصة الانقطاع ليفسدوا في ومضة ما حقّقه القوم في أيّام وأيّام.

ولكن اللحون التي راهن القوم على أسحارها في تدبير الشفاء أجّجت في القلوب الشجون، فسقط شباب كثيرون فريسة الوجْد. وكان على شاعرات القبيلة إرواء فرسان داء الوجد بضروب أخرى من اللحون تختلف عن ضروب اللحون التي جعلها الناموس ترياقاً لداء الحنين، فحلّ الإرباك، وعمّت البلبلة.

أخفق الغناء في معالجة الدّاء فاشتدّ في قلب الممسوس النّداء. اشتدّ النّداء فاستجابت الصحراء. استجابت الصحراء بالبلاء. اغتربت الصحراء عن وطن الصحراء، فاختنق الماء في مآقي السّماء. تمادى في الأرض الحريق، وتيبّس الكلأ في مراتع الأنعام، فبدأ الظمأ، وتتابع هلاك القطعان.

لم يقرأ صاحب المسّ في البلاء رسالة الخفاء إلاّ بعد أن تململت في الخلاء النجوع، وتأهّب القوم للإقلاع. جاء زمن الجدب مبشّراً بمحن المجاعات، فقرّر القوم النزوح إلى الواحات كما اعتادوا أن

يفعلوا كلّما عمّ في الصحراء ذلك البلاء الذي عدّوه دائماً أشرّ بلاء: الجدب!

لا ينزح أهل الصحراء ليلتجئوا إلى الواحات إلاّ كُرْهاً. يستطيعون أن يعاندوا تقلّب مزاج الصحراء التي كثيراً ما تقتصّ منهم بأعتى الرياح، أو تهلك قطعانهم بالفيضانات والسيول، أو تقطع دابرهم بحملات الدخلاء الذين يغزون الصحراء بلا انقطاع، أو تخرج لهم من مخابئها المجهولة ضروب زواحف أو أنواع وحوش ظنّوا أنها انقرضت ولم يعد لها وجود إلاّ في بلاد الأدغال، فتنزل في نجوعهم الرعب والإرهاب. ولكنّهم يستسلمون عندما تبخل عليهم بالماء، فيتخلّون عن استكبارهم الأبدي، ويبتلعون سكاكين احتقارهم الخالد للواحات ولأهل الواحات الذين لم يروا فيهم يوماً سوى عبيداً للأرض وأعداء للصحراء وللحرية التي لا تهبها إلاّ الصحراء. ينزلون أحاضيض الواحات منكسرين، يائسين، أذلاّء، وفي قلوبهم جميعاً يوسوس الوسواس الذي يقول أنهم يذهبون إلى وطن الأوبئة والاسترخاء والأهوية الملوّثة بالعفونات لا ليحيوا أو ليبعثوا أحياء، ولكن لكي يتحلّلوا ويدفنوا أنفسهم في الأرض أحياء!

والفزع من هذا المصير المهين هو الذي يجعل القبائل، بل يجعل حتّى أبناء القبيلة الواحدة، ينقسمون على أنفسهم ما أن يقرّر العقلاء أمر الهجرة، فيؤثر الكثيرون البقاء في الصحراء برغم المحنة، والتّشبّث بسهولها القاسية حتّى وهي تتعرّى وتتجرّد وتلوّح في وجوههم بوصيّة الخروج. لأن أهل الصحراء جرّبوا مراراً كيف ينجو أولئك الذين

وعدتهم الصحراء بالتهلكة لمجرّد أنهم صمدوا وصبروا على بليّتها، في حين هلك أولئك الذين فرّوا إلى الواحات بالأوبئة!

والغصّة التي اختنق بها صاحب المسّ يوم انتزعت أوتاد الأخبية من أعماق الأرض فانهارت المضارب على الرؤوس، هي الغصّة ذاتها التي رآها في وجوم عقلاء بدا واضحاً أنهم فقدوا الحيلة لأوّل مرّة في زمن لم تعد تجدي فيه الحيلة. وهي الغصّة ذاتها التي رآها في عيون كهنة القبيلة لأنهم فقدوا التميمة ولم يعد بوسعهم أن يفعلوا شيئاً. وهي الغصّة ذاتها التي أبصرها في عيون صبايا كنّ يمشّطن شعورهن في جدائل إمّا تأهّباً للدخول على المعشوق في ليلة القِران، إمّا استعداداً للاشتراك في حفل السّمر الذي سينعقد في العراء ليلة اكتمال القمر بدْراً. لأن ركائز الأخبية التي انهارت على رؤوسهن في ذلك اليوم أماتت الحلم في قلوبهن البكر إلى الأبد، لأن الشقيّات لن يستطعن بعدها أن يقرعن طبول الفرح ابتهاجاً باستواء القمر بدْراً، كما لن يستطعن أن يملأن دنيا الصحراء الأبدية بلحون الحنين، كما لن يطمعن في الفوز بقلوب العشّاق، لأن العشق فروسية، والفروسية بطولة صحراوية لا وجود لها في رحاب الواحات.

كل شيء في الصحراء تكلّم يومها برسالة نعي. والصمت المريب الذي لفّ الدنيا ساعة تحرّكت القافلة في سبيل قدرها الجديد لم يكن صمتاً من النوع الذي يحبل بما استحت الصحراء أن تدنّسه بالعلن ككل صمت في الصحراء، ولكن الصمت كان يومها نحيباً. كان مأتماً، والقافلة لم تكن قافلة كما في كل مرّة، ولكنها كانت يومها جنازة.

ولم يكن يعلم يومها أن الصحراء كاهنة داهية لا تخرّب إلا لتبني، ولا تصيب بالدّاء إلاّ لتنجز الدّواء، ولا تهلك مريدها إلاّ لتبعثه من رماد الموت حيًّا. لأن عليه أن يتنقّل في دروب المتاهة طويلاً كي يعلم أخيراً أن الصحراء أمّه الحميمة التي لم تدفعه يومها إلى المنفى إلاّ لتحيي فيه تلك التميمة التي استودعتها في قلبه يوماً بيد كاهن الأجيال والمسمّاة في لغة القبائل الأولى: «تيدت». أي أن الصحراء دفعت به إلى أوّل درجة في سلّم المنافي الطويل لا لأنها تعلم أنها لن تستعيده إلاّ بالتحمّم بنار المنفى، ولكن ليقينها بأن الكنوز المخفية بعيداً في مجاهل النفوس لا تتزحزح ولا تهب نفسها إلاّ بعبور سلسلة طويلة وموجعة من المنافي.

والواحة كانت الدرجة الأولى في سلّم المنافي.

ولكن بلوغ الواحة لم يكن أمراً يسيراً لقوم انقطعت في متاعهم حتّى حبّات النّوى، لأن الجفاف الذي أهلك القطعان وراء القطعان هو الذي قطع الحليب في ضروع ما تبقّى من الأنعام. فَعَدَم القوم الأجبان والأسمان التي اعتادوا أن يقايضوا بها الحبوب والتمور سواء مع تجّار القوافل أو مع أهالي الواحات، فتضوّر الخلق جوعاً ولم يجدوا في خوابيهم ما يمكنهم أن يسدّوا به رمق الصغار أو الرعيان الذين تقع على كواهلهم، في مثل هذه المحن، مهمّة تسيير القوافل ومعاندة الدواب، والحيلولة دون هلاك شتات القبائل قبل بلوغ واحات الخلاص.

أناخوا البعائر في السبيل مراراً ليبيتوا شطراً من الليل. وعندما هدّهم الظمأ ونال منهم الجوع استبدلوا المسير ليلاً بمسير النهار.

خفّفت الحيلة على الرجال ضراوة الشمس، ولكنّها لم تهوّن العبء على ظهور البعائر. فوهنت كثيراً، وانهارت تحت وطأة الأثقال مراراً، ممّا اضطرّ الرجال أن يهبّوا للنجدة كلّما انهار في السبيل جمل. وعندما لم ينفع العون في مرّات أخرى لم يجد العقلاء بدًّا من التضحية بالمتاع كتدبير لا غنى عنه لإنقاذ أصحاب المتاع.

ولكن حتّى أشدّ الرعاة بدأوا في المسافات التالية يضعفون ويتضعضعون بعد أن نال منهم الظمأ والجوع والإعياء، فتجسّد في عيون القوم شبح البليّة، وقرأ الكهّان في الأمر علامة هلاك.

التأم العقلاء للتشاور كلّما حطّت القافلة الرحال لالتقاط الأنفاس. ولكن ما جدوى الاحتكام إلى العقل إذا هيمنت على الصحراء نيّة القصاص؟

ولكن أهل العقل كعادتهم لم ييأسوا: تهامسوا، تجادلوا، تحاججوا، وعادوا بالوصايا السريّة إلى بطون الأخبية ليلقوا بها في آذان العجائز.

انتظرت هذه الملّة الرهيبة المسمّاة في لغة القوم عجائز (برغم أن الكلّ يجمع أن المرأة في الصحراء لا تعترف بنفسها عجوزاً إلاّ إذا أوتيت من علم الكهانة أو الأسحار أو الدهاء نصيباً) حتّى حلّت الظلمات ليخرجن من ثنايا متاعهن كنوزاً مكنونة احتفظن بها طويلاً لأنهنّ كنّ دوماً السلالة الوحيدة التي لم تأمن لؤم الزمان، ولم تراهن أبداً على رخاء الأحوال، لأنها كانت دائماً بتذبذب مزاج الصحراء أعلم، وبالبلايا الأقرب من حبل الوريد أدرَى. ولو لم يكنّ كذلك،

لما استحققن ألقابهنّ المهيبة ككاهنات، أو ساحرات، أو داهيات، أو حتّى جنّيات كما يروق للكثير أن ينعتوهنّ.

استخرجن في ظلمات تلك الليلة أوّل غيثهنّ: حفنات شعير لإقامة أود البعائر، وحبّات تمر لشدّ أزر الرعاة الذين يسوسون البعائر.

كانت تلك تضحية لا بدّ منها لإنقاذ القافلة من هلاك لا شكّ فيه، لأن هلاك الصغار الذين حُرموا من القوت لن يعادل هلاك الدواب أو ساسة الدواب الذين يتولّون زمام الأمر. ولهذا لم يستهجن القوم رؤية رجال يترنّحون جوعاً وهم يحملون نصيب الزاد الأخير ليدسّوه في أيدي رجال هم به أحوج، أو يطعمون به البعائر من أيديهم الراجفة.

هو أيضاً لم ينسَ التجربة.

فقد كان نائماً عندما أيقظته الأمّ لتضع في يده اليمنى حبّات التمر التي أتلفها الدّود، وفي يده اليسرى صرّة الشعير لتقول بصوت صارم أنكره: «هذه للراعي، وهذه للجمل! إيّاك أن تمدّ يدك فتأكل منها لأنها قربانٍ: كلّ من جرؤ على أكله أكل الخفاء من لحمه!».

لم يعرف إلى الأبد لماذا اختارته الأمّ لهذه المهمّة القاسية بدل الأب، أو الأشقّاء، أو الأَمَة الزنجية التي ترقد بجوارها. ما يعرفه هو أنه تأمّل العطيّة في الظلام فلم يتبيّنها، فشدّ عليها قبضته ليتيقّن من حقيقتها فسمع صوت احتكاك التمرات البائسة كقطع الحشف، النحيلة بفعل الدود، في راحة اليد. كانت يده ترتجف شوقاً إلى التقام الطعام، إلى التهام العشب، إلى انتهاش حتّى الحجارة. وكانت اللقمة

في متناول اليد، بل في قبضة اليد، ولا تبعد عن فمه المتيبّس الخاوي إلاّ مسافة لن تستغرق في ناموس الزمان ومضة. وقد رفعها إلى فمه بالفعل. شيّعها ببطء فاشتدّت الرجفة. رفعها حتى لامس بها شفتيه، ولكنه مرّرها إلى الأعلى بدل أن يلقي بها في الجوف الملهوف. رحل بها إلى أبعد، إلى جوف آخر يقع بين الشفة المتعطشة للقمة وبين فتحة الأنف الظمأى إلى النكهة. هناك استقرّت العطيّة. هناك تململت التقدمة. هناك تلذّذ بالرائحة حتّى تزعزع بالدّوار. لم يحسب يوماً أن للتمر اليابس نكهة. لم يحسب يوماً أن حبّة التمر التي طمرها الفلاّحون في الواحات في مطامير الرمل دهراً قبل أن يبيعوها لأهل الصحراء في الأسواق مقابل الجبن أو السّمن أو اللحوم المجفّفة، يمكن أن تفوح برائحة ألذّ من أشهى الأطعمة، برائحة أشهى من رائحة حبّة الكمأ التي قدّمها عطيّة لحسناء الجنّ يوماً. فهل السرّ في الجوع؟ هل يشحذ الجوع حاسّة الشمّ إلى حدّ يستطيع فيه الجائع أن يستكفي من اللقمة الشهيّة بنكهتها الزكيّة؟ أم أن الشبع هو الرجس الأقبح الذي لا يصير الإنسان إنساناً خيّراً إن لم يجتنبه؟

زحف على قدميه حاملاً بين يديه البلاغ. زحف وهو يغالب الوهن والدوار والغثيان حتى بلغ مربد الأنعام حيث يرقد الرعاة بجوار البعائر. لكز الراعي بمرفقه فأزاح الرجل لثامه عن عينيه بهدوء قبل أن يفتح العينين المغمضتين ويرنو إلى القمر الطالع للتوّ. فتحهما فرأى فيهما فراغاً أخافه. فراغ مجهول لم يره في عيني ذلك الرجل الحكيم الذي حمله على ظهره مراراً قبل أن يحمله على ظهور المهاري. ثم أخذه معه إلى المراعي ليعلّمه صيد الغزلان والأرانب والضباب

واستخراج الكمأ. ظنّ يومها أن علّة الخواء ليست الجوع ولا الظمأ ولا الإعياء، ولكنه الهمّ. همّ رجل اغترب عن الوطن وعن الأهل وكتب عليه أن يلقى حتفه بعيداً بسبب اللعنة، بسبب الجدب الذي أتى بالجوع وبالظمأ وبكلّ سوء مصير.

وضع ليلتها الكنز بين يديه فحدث بعدها ما لم يتوقّعه وما لم يكتب له أن ينساه. وضع الصرّة بين يديه أوّلاً ثم مدّ يده بحبّات التمر ليضعها في يده الأخرى. تناولها الحكيم فوجدها مغمورة بالعرق. عرق قبضة اليد التي تشبّثت بها، وأطبقت عليها بقوّة كأنها تخشى أن تنقشع أو تفرّ. قبضة يد رأت في حبّات التمر وصيّة لا حفنة تمر. رأت في حفنة التّمر قرباناً، كما أوصت الأم، لا لقمة لسدّ الرمق. وكان عليها أن تصونها في سويداء القلب أو تحتفظ بها في بؤبؤ العين قبل أن تبلغ بها برّ الأمان دون أن يمسسها سوء.

في البداية اكتأب الحكيم. ولكنه ما لبث أن ابتسم. قطع القمر المبتور في الرحلة أشباراً فأبصر في ضيائه الكئيب بسمة الرجل الغامضة وهو يتأمّل العطية في راحة يده. همّ بأن ينصرف ولكن الحكيم استوقفه قائلاً: «هذه لك!». التفت فوجده يمدّ له يده بنصيب استقطعه من الكنز. أضاف بسكينة الحكماء التي عرفها في الرعاة أكثر مما عرفها في أكثر العقلاء حكمة: «لقد اقتسمتها بيننا بالتساوي!».

10 ـ الواحة

«كلّ نعيم في أحضان واحة ـ جحيم. كلّ جحيم في رحاب صحراء ـ نعيم».

(الكوني)

من «آدري» في الشمال إلى «آدري» في أقصى الجنوب.

من واحة «تينغرت» المغسولة بمياه الظمأ إلى واحة «تارجا» المغمورة بمياه الحضيض.

من هبة السماء الملقّبة في لسان الأقوام باسم التخلّي، إلى هبة الأرض الملقّبة في لسان الأقوام غمراً.

من تميمة الخلاص التي يرتوي من سلسبيلها الوجدان، إلى تعويذة الدنيا التي تروي البدن لتكبّله بسلسلة طولها سبعون ذراعاً، لأن الوطن الأنبل في ذلك الجرم المغسول بقصاص الظمأ الذي تركه وراءه دون أن يدري أنه يهجره إلى الأبد، وليس في الوطن المغمور بفيوض الغمر الذي نزله دون أن يدري أنه بذلك قد كبّل نفسه بأغلال الغربة إلى الأبد.

نزل معشوق الثريا، كما راق للأنداد أن يلقّبوه يوماً، أرض الغربة بعد ظهيرة ذلك اليوم طريداً من فردوسه الخالد ببلاء اسمه الجدب، ليصير قرين الثريّا في غربتها الأبدية لأنها عنقود السرّ الذي يغترب عن ملكوته في استتاره، كما يغترب عن حقيقته في استظهاره.

فرّ مقهوراً من وطن الأسلاف الذي يحتضن في ربوعه وادي الجنّ المقدّس «آوال» لينزل هاوية هائلة تمتد إلى كل الأركان، تشطر رحابها سيوف رملية مكابرة، وتجري في أسافلها عروق مائية أطلق عليها القدماء اسم «تارجا» (أو «تارقا»).

وقد تبنّته أمم الدخلاء التي دخلت الصحراء في مراحل تاريخية تالية لتطلقه على كل أقوام الصحراء التي سبقتهم ليجبّ كل الأسماء التي كانوا يطلقونها على أنفسهم ليصبح كل سليل انتمى إلى قارة الصحراء «تارجي» أو «تارقي» دون أن تعلم أجيال الأغراب أن أهل الصحراء ليسوا أهل «تارجا»، وأهل «تارجا» هم أهل الواحات الواقعة إلى جنوب صحراء الشمال وليسوا أهلاً للصحراء الجنوبية كلّها. تلك الصحراء التي ترد على ألسنة القبائل تحت اسم آخر هو «الصحراء الوسطى» لتمييزها عن صحراء الشمال المجاورة لمدن البحار من جهة، وعن صحراء الجنوب المتاخمة لأوطان الأدغال من جهة أخرى.

وواحات «تارجا» (على ما تروي السِّيَر) أقامها أسلاف أهل الصحراء قديماً لتكون لرحلة عبورهم الأبدي ملجأ يتزوّدون منه بالماء وبعض المؤن التي تجود بها الأرض طوعاً كثمار النخيل لأنهم أبوا في ذلك الزمان أن ينتهكوا حرمة التراب بالحرث والاستزراع لأنهم لم يروا في الأرض سوى أُمّاً جديرة بالإكبار فاستقدموا الخدم الذين انتهبوهم من الأمم الأخرى في الغزوات ليستزرعوها بدلاً منهم على أن يقوموا هم (كقبائل متنقلة لا سلطان عليها) بحمايتهم من الخارج كلّما تعرّضوا لخطر الغزوات أو حملات النّهب. ومع تصرّم الأيام

ترعرعت هذه التجمعات لتصبح مستوطنات آهلة بسكّان سرعان ما استشعروا الحاجة إلى تبادل السّلع مع المستوطنات الأبعد فسيّروا القوافل إلى هؤلاء الأغيار ليقايضوا محاصيلهم ببضائع لم يكن لهم أن يحصلوا عليها في أرضهم. ولم يمضِ وقت طويل حتّى صارت حركة القوافل تجارةً مغرية أغوت كلّ مغامر بالفوز أو حالم بالإثراء السريع. فساعد كل هذا في ازدهار هذه البدعة حتّى أنها انقلبت في الصحراء حرفة احتلّت في تسلسل الحرف المنزلة الأولى. أمّا أهالي الواحات الذين لم يكونوا إلى عهد قريب سوى خدماً استقدمهم الأسياد ليستبيحوا بكارة الأرض بدلاً منهم فقد استشعروا السلطان بفضل الرخاء فشقّوا عصا الطاعة على أهل الصحراء. ابتنوا حول أبنية واحاتهم الحصون والأسوار ليحتموا بها من غارات أسيادهم القدماء.

ولكن صمود هؤلاء لم يدم طويلاً، لأن فرسان الصحراء لجأوا إلى محاصرة الأهالي وعزلهم لا عن حقولهم وحسب، ولكن عن بقيّة الواحات وعن قارّة الصحراء كلّها ممّا أضرّ بحركة القوافل، وضرب التجارات العابرة عن ظهور الدواب، فاستسلم العصاة أخيراً، وعقدوا مع أهل الصحراء مواثيق تبيح للأهالي حريّة الاستمتاع بعطايا الأرض التي نالوها بعرق الجبين مقابل التنازل عن نصيب من هذه العطايا لأهل الصحراء الذين سيتولون بالمقابل حماية الواحات لا من غارات الغزاة وحدها، ولكن حماية قوافل الواحات من طمع قطّاع الطرق أيضاً.

ويوم نزلت القافلة بمعشوق الثريّا أرضاً تجاور الخلاء الممتدّ غرب الواحة وتبعد عن الأسوار كثيراً، ظنّ أن أهل الصحراء فعلوا

ذلك حنيناً إلى الوطن الذي لم يفارقوه إلاّ غصباً. ولم يدرك إلاّ بعد زمن طويل أن دهاة القوم فعلوا ذلك لا إرواء لظمأهم إلى الصحراء، ولكن لكي يتجنّبوا ضروب أوبئة غريبة يسبّبها الاحتكاك بالخلْق. أوبئة أهونها أوبئة تنتقل عدواها بالجسد، وأرذلها أوبئة تنتقل عدواها باجتماع النفوس بالنفوس.

وقد بدأ يدرك رويداً سرّ هذه العلل يوم ذهب إلى «بيت الحكمة» ليتعلّم على أيدي أهل العرفان رطانة أهل الواحات التي اكتشف أنها لسان يختلف كل الاختلاف عن لسان أهل الصحراء. وكان ذلك الخطوة الأولى في درب الألسن الطويل الذي كان عليه أن يعبره إذا شاء أن يلج بوابة «تيدت» الخفيّة كما أوصاه كاهن الأجيال القديم عندما زاره في إحدى الليالي كما اعتاد أن يفعل دائماً ليقول له بعبارة لم يكتب له أن ينساها: «كلمة سرّ معشوقتنا «تيدت» تتخفّى في حجاب اسمه العرفان. والعرفان أيضاً طلسم كلمة سرّه في الألسن، فاحترس أن تنسى!».

وقد اكتشف منذ البداية أن تطويع اللسان لاستجلاء أسرار لسان غريب ليس أمراً يسيراً لو لم يستنطق مجاهل النسيان ليستلهم نبوءة أخرى من حكيم الأجيال الذي قال له يوماً أن العناد لا بدّ أن يكون وصيّةً ثانية لمريد يريد أن يحقّق في دنياه فلاحاً. فما كان منه إلاّ أن عاند مستعيناً بالركن الثالث من ثالوث الوصايا الذي دسّه الكاهن في تلك الشعلة التي تتحوّل حيّةً مميتة تسعى وراء المريد إذا خالف الناموس، كما تتحوّل شهوةً تتقد في الوجدان لمريد يسعى وراء رسالة.

لم يطل عراكه مع أسرار اللسان الجديد، لأن لذّة الاستكشاف ذهبت به بعيداً فنسي في غمرة انهمامه بالخفايا أنه يتعلّم لساناً، وتهيّأ له أنه يتعشّق حسناء لا تقل إغواء عن حسناء الجنّ التي تعلّق بها يوماً، واكتشف مع الأيام سرًّا حاول أن يعبّر عنه في وصيّة لسان حالها يقول: «العقل الذي امتلك سرّ اللسان الواحد ليس كالعقل الذي امتلك سرّ اللسانين، لأن من يحيا مرّة ليس كمن يحيا مرّتين».

استقام له الأمر سريعاً فوجد نفسه يجلس إلى جوار الأنداد في «بيت الحكمة» ليتلقّى الوصايا من شيخ كئيب ضلّ يرهبهم بعصا جريد نخل أخضر مردّداً أنه سوف ينير لهم بها سبيل السفر وراء كنوز العرفان المستخفية في برّ المجهول.

كان هذا الجلاّد يخضعهم لقصاص مرير لأتفه الأسباب. ينهال على ظهورهم الغضّة بعصاته الفظيعة إذا تأخروا عن الميعاد لحظة، ويجبرهم على مدّ أيديهم لتلقّي الضرب إذا ندّت عنهم الهمسات أثناء الدرس، ويوقفهم على رجل واحدة بأيدٍ مرفوعة إلى أعلى إذا أخطأوا في عبارة أو أساءوا فهم الإشارة، حتّى أيقنوا أن البيت هو بيت قصاص وليس بيت الحكمة، والحلقة حلقة تنكيل وليست حلقة درس.

في ذلك الأوان الذي تمكّن فيه من أسرار اللسان بدأ يستخدم اللسان في استجلاء مجاهل العرفان معتمداً على نفسه فاستفزّ بذلك الأقران قبل أن يستثير حفيظة حكيم الكذب لأنه لم يعرف بعدأن ما لا يغتفره الأقران هو تفوّق القرين على بقيّة الأقران، وما لا تطيقه سلالة الأنام هو فوز الإنسان على بقيّة الأنام. وكان على من تجاسر وارتكب

هذا الإثم أن يدفع الثمن غالياً. وكان على أهبة الاستعداد ليدفع ثمن الآثام دائماً لو أوتي علماً بحقيقة هذه الآثام، بل كان على أهبة الاستعداد لدفع ثمن حتّى تلك الآثام التي لم يرتكبها. ولكن الجنون أن يطلب منّا دفع ثمن تلك الآثام التي لم نعلمها، لأن الشرّ، كما تعلّم فيما بعد، ليس أن ندفع ثمن جُرمٍ لم تقترفه أيادينا، ولكن الشرّ كلّ الشرّ في أن ندفع ثمن الجُرم الذي جهلنا أمره ولم نعلم عن حقيقته شيئاً، فنُساق إلى القصاص كما تساق الشاة إلى المذبح.

فقد وجد هؤلاء الأوباش يصيحون في صبيحة أحد الأيام وبصوت جماعي: «هو! هو! إنه هو من فعل يا مولانا ولا أحد سواه!».

في البداية لم يفهم. ظنّ أن عقولهم الخاوية قد تفتّقت عن مزحة جديدة من مزحهم السمجة الكثيرة التي اعتادوا أن يبتدعوها ليتسلّوا. ولكن وجوههم المحتقنة، وعيونهم الجاحظة، فضحت جدًّا، بل حقداً، بل مكيدةً. كانوا يشهرون في وجهه سبّابات أيديهم، أفواههم تنثر زَبَداً كزبد الجمال الهائجة، وحدقات عيونهم التي تقدح شرراً تكاد تفزّ من محاجرها، وأبدانهم ترتجّ وترتعد كأنهم أعداء يتعطشون للانتقام من عدوّ ترصّدوه منذ زمن بعيد ولم يقع في قبضتهم إلاّ أخيراً، وحناجرهم تتمزّق بهتاف الإدانة الخفيّ: «هو! هو! هو يا مولانا من فعل ولا أحد سواه!».

في لحظة وجد الجلاّد يقف فوق رأسه: عيناه محتقنتان بالدمّ أيضاً، لحيته ترتجف، وأسنانه تصطكّ. لم يطل به انتظار القصاص لأن حكيم الزور الذي زلزله الغضب ما لبث أن هوى على وجهه

بصفعة. لم تكن تلك صفعة. تلك كانت صدمة. كانت اصطداماً بجرم صلد أشبه بصخرة سرعان ما استنزلت في عينيه ظلمة وفي رأسه رجّة غاب في أثرها عن المكان. لا يدري كم من الزمن استغرقت غيبته، ولكنه يدري أنه عندما عاد إلى المكان من رحلته إلى المجهول سمع جعجعة كريهة فاستعاد الذاكرة. كان هتافهم ما زال عالياً، وضجيجهم لم ينل منه القصاص الذي تلقّاه من كفّ الجلاّد الوحشية.

حاول أن يقف على قدميه، ولكن يد الجلاّد انهالت عليه صفعاً فسقط على الأرض. سقط عند قدمي جلاّده فتولاّه الوحش ركلاً ورفساً بقدميه. ثم ضرباً بعصا الجريد الأخضر حتّى لم يعد يستشعر الوجع من فرط الرّكل والرفس والضرب.

ولكن القصاص لم يشبع نهم الوحش المتعطّش للأذى، فجرجره على الأرض وعلّقه من قدمه اليمنى على شجرة نخيل تنتصب بالجوار، وتركه في العراء تحت شمس القيلولة حتّى اقترب الغروب. أخلى سبيله فعاد إلى البيت زحفاً على اليدين والقدمين. عاد بعد منتصف الليل فلم يقدر أن يتغلّب على الغصّة التي سدّت البلعوم ليحدّث أمّه بما حدث. غصّة لم يكن سببها الوجع، ولكن علّتها كانت الإحساس بالجور الذي يجعل الإنسان يدوس أخاه الإنسان بالأقدام ظلماً دون أن يكلّف نفسه حتّى عناء النطق على رأسه بصحيفة الاتّهام. الإحساس باستخفاء الجرم الذي نال بسببه القصاص أصابه في الصميم فلم يجد غير الخفاء ليثأر لنفسه من الدنيا.

استولت عليه الحمّى وغاب عن الوعي طويلاً، طويلاً. غاب عن الدنيا أياماً، أسابيع، أشهراً، حتّى يئست من شفائه الأم، بل وولولت

فزعاً يوم عاد إلى الدنيا لأنها اكتشفت أنه لا يمشي إلاّ زحفاً على أربع كما حدث في الزمان الذي أصيب فيه بالمسّ. عجز عن المشي طويلاً، واشتكى للأم إحساسه بالعزلة لأوّل مرّة. كان كل شيء يحدّثه بعزلته: الأشقاء، الأنداد الذين تحوّلوا فجأة أعداء، وحش بيت الحكمة، الأب الغائب دوماً، وحتّى الأمّ نفسها. الكلّ يصرخ في وجهه كما صرخ الأقران في وجهه بالتهمة المجهولة: «أنت غريب. أنت في دنياك وحيد. أنت لا مكان لك بيننا!»، فلم يجد بدًّا من أن يشتكي. اشتكى لأوّل مرة قائلاً: «أنا وحيد»، فما كان من الأم إلاّ أن شيّعت بصرها إلى العراء المؤدي إلى كثبان الرمال الغربية وقالت تعزّيه: «كل صاحب نذر في هذه الدنيا إنسان وحيد!».

لكن العزاء الحقيقي أتاه في تلك الليلة من دنيا الخفاء. زاره كاهن الأجيال المقنّع بستور الجلد ومسّد على قدميه بيديه الممزّقتين بكتل العروق صامتاً. وعندما انتهى لم يقل له غير كلمة واحدة مبتسرة وصارمة: «سِرْ!».

في الصباح لبّى النداء.

وقف ليدبّ على قدميه. ولكنه لم ينطلق صوب بيت الحكمة، بل تسلّل إلى سوق الواحة ليلتحق بقافلة متجهة إلى الشرق.

خرج من الواحة في ظهيرة يوم قائظ، فلم يعلم عن سرّ المكيدة شيئاً، لأنّه لم يعد إلى الوراء إلى الأبد.

11 ـ اللّحون

«عندما تنوح اللحون، تنوح مع نواحها الإنسانية كلّها، تنوح مع نواحها الطبيعة كلّها».

(برغسون)

في واحة الشرق اتخذ من غار يتسلّق هامة الجبل مأوى ليتسلّى من هناك بمشاهدة حضيض الواحة حيث تتبعثر الأكواخ المضفورة من سعف النخيل، والأبنية الهزيلة الملفّقة من كتل الطين التي تتجاور في صفوف متعرّجة مضحكة حيناً، وتتنافر حيناً آخر، فتتضاءل في أجرامها كأنها تتباهى بعزلتها.

في واحة الشرق لم يبدّد الوقت. التحق بحلقتين من حلقات الحكمة في الوقت نفسه، فكان يذهب للالتحاق بالحلقة الأبعد في الصباح، ويعود ليلتحق بالحلقة الأقرب في المساء.

وقد استثار هذا النّهم الأقران الجدد فتنبأوا له بالإخفاق. في حين سأله حكيم الحلقة الأبعد عن سرّ هذه اللهفة فأجابه بأن العرفان صحراء بلا حدود والعمر رحلة قصيرة. فتأمّله بفضول وعلى شفتيه ارتسمت بسمة غامضة قبل أن يقول: «كم أخشى عليك من العرفان!». وعندما أجابه عن قوله بسؤال: «وهل يخشى على الإنسان، يا مولانا، من العرفان؟!». أجابه بحزن خفيّ: «وهل يخشى على الإنسان، يا بني، من شيء غير العرفان؟!».

لم يفهم يومها حقيقة الإشارة الكامنة في هذه العبارة، لأن عليه أن يتنقّل في بحور العرفان طويلاً، ويركب أخطار متاهاته كثيراً، كي يعلم أن عبارة شيخ الحلقة لم تكن سوى نبوءة!

هناك، في غار الجبل الواقع شرق واحة الشرق، كتب له أن يقول أوّل الأشعار. عاند اللسان مستعيناً على العرفان بالخلوة، فلم يمضِ زمن طويل حتّى أقبل الإلهام، وجرى الحنين، المطمور في الوجدان، على اللسان شعراً يتغنّى بسرّ الوجدان.

اعتاد أن يخرج للخلاء الممتدّ شرقاً ليلقّن أغانيه لمعشوقهِ الريح، ويمكث هناك حتى آخر الليل ليردّد لحونه على أهل الخفاء. ولم يتنازل لينزل ساحة الخلْق ليقرأ الأشعار على الأقران إلاّ بعد أن استقام له الأمر ونال استحسان الخلاّن في ملكوت الخفاء.

ولكنه لم يدرك أن ما نال استحسان خلاّن الخفاء هيهات أن ينال استحسان خلاّن دنيا الخلاء. لأن أنشودة المديح التي تغنّت بجمال الصحراء استثارت سخرية البلهاء الذين لم يروا للصحراء جمالاً يوماً، لأنهم لم يعرفوا الصحراء، برغم أنها تحتضنهم دوماً كما احتضنت أسلافهم من قبلهم.

أحزنه أن يجهل هؤلاء الأشقياء جمال معشوقته الصحراء فاختنق بلحونه أيّاماً محاولاً أن يجد تفسيراً للأحجية مسائلاً نفسه أثناء سعيه في خلاء الخلوة الشرقية: «هل هم عميان؟ أيعقل أن يخفى عن أبصارهم يسرها؟ أيعقل أن يُخفى عن أبصارهم عزلتها؟ أيعقل أن يُخفى عنهم استكبارها؟ أيعقل أن تُخفى عن أبصارهم سماحتها، أو لا

مبالاتها، أو قسوتها؟ أم أنهم لا يعلمون، كما يعلم، أن أنبل ضروب الجمال هو الجمال المجبول بوسم من قساوة؟ وإذا كان البلهاء عميان لا يبصرون فلماذا يبصر أهل الخفاء ما لا يبصره هؤلاء؟ أم أن الصحراء تستر حقيقتها عن الفريق الذي يرى بالبصر وتكشف عن مفاتنها للفريق الذي يرى بالبصيرة لا بالبصر الذي لا يبصر في الدنيا فتنةً غير فتنة النساء؟».

استفزّه الاكتشاف فقرّر أن يجرّب: تخلّى عن لحون الحنين إلى حين، ونزل إلى حضيض الدنيا ليتغنّى بجمال النساء! لم يقرأ أشعاره الجديدة على خلاّن الزور، ولكنه ذهب واختطّها على رقعة اعتاد المريدون أن يعلّقوها على جدار «بيت الحكمة» ليبثّوها شجونهم، فلم يطل به الانتظار. لأن الأغيار هرعوا إليه ليعبّروا له عن امتنانهم وهم يردّدون بحماس: «أحسنت! أحسنت! أحسنت!».

ثم بدأ يثنون على الأغاني فقالوا أنها أجمل فنون القول، ولا يمكن مقارنتها إلاّ بأشعار الملاحم التي تناقلتها الأجيال في سير الأوّلين، حتّى انتهوا إلى القول بأنها إلهام سماوي!

كان يروق له أن يستمع للغو هؤلاء البلهاء ساكناً، على شفتيه تتجلّى بسمة استخفاف، وفي قلبه يمور الغضب. يمور الغضب الذي يتغذّى من يقينه بأنّه بين هؤلاء الناس غريب ليقينه بأنه لا مكان له بينهم. لا مكان له بينهم لأنهم لا يرون ما لا يرى، ولا يرى ما يرون. لأنهم لا يرون إلاّ ما يُرَى في حين لا يرى هو إلاّ ما لا يُرى. فكيف يستطيع أن يروي لهم ما لا يرون ما داموا لا يعترفون إلاّ بما يرون؟ فما كان منه يومها إلاّ أن تذكّر وصيّة الأم يوم قالت له أن كل

صاحب نذر في هذه الدنيا إنسان وحيد لتكون له في غربته الجديدة عزاء.

ثمّ.. ثمّ فاجأوه مرّة أخرى يوم هرعوا إليه ليتوسّلوا أن يدوّن لهم الوصايا على رقوق الجلود أو ألواح الأخشاب دون أن ينسوا أن يغدقوا عليه بعبارات الثناء التي تشيد بسلطانه على اللسان العصيّ، وتمدح براعته في تشييد صروح البيان، وقدرته على تسييس ضروب قولٍ أعجزتهم الحيلة في أن يقولوا قولاً له شبيهاً.

ولم يتخيّل وهو يسطّر لأهل التجارة على الرقع رسائلهم إلى الأقران في أوطان البُعْد، أو يدوّن للعشّاق على الألواح سطور لهفتهم للقاء المعشوقات، أن ينقلب هذا اللهو المملّ سبباً لرزق قدّرته له الأقدار لتكفيه شرّ حاجةٍ لم تكن عطايا الأب في زياراته النادرة (أثناء عبوره إلى الواحات المجاورة) لتكفيها. وكان عليه أن يوفّق بين شأنه الدنيوي الجديد وبين توقه إلى عرفانٍ لم يشبعه تردّده على حلقة الحكمة فاستعان بالخلوة ليستعير من المجهول علماً يستعين به على استجلاء خفايا رسالته الخفيّة. وكان يقول لنفسه عندما ينطلق في الصباح للالتحاق بـ«بيت الحكمة»: «هذا ميعاد الدرس، فأغمض عينيك وانتبه بأذنيك!». وعندما يستقبل الوجهاء والدهما وأصحاب التجارات وأهل العشق ليسطّر لهم ثرثراتهم على الرقوق كان يردّد: «هذا ميعاد البلبال الذي يجلب العيش، فهوّن عليك!». وعندما يختلي بنفسه في العراء ليستجلي الإلهام كان يقول: «هذا ميعاد الجمال، فلتتخلَّ، يا قلب، ولتتجلَّ!».

ولكن عمر التجلّي لم يدم طويلاً. لأن الباب الذي يدخل منه الرزق هو الباب الذي يدخل منه الشرّ دائماً.

فقد دوّن مرّة مخطوطاً لأحد العشاق يتغنّى فيه بمفاتن معشوقته التي تقطن في الجانب القصّي الواقع عند حدود الواحة الغربية. ولا يعرف كيف اكتشفت هذه الشقيّة سرّ المخطوط الذي لم تختطّه يد العاشق، ولم تجربه قريحته أيضاً، فتخلّت عن عشقه وطرقت باب غاره يوماً لتتعشّقه هو بدل العاشق المزوّر. وكان بالإمكان أن يتخذ التدبير ويجتنب الخطر لو كشفت له العاشقة عن هويّتها الحقيقية. ولكن الخبيثة تنكرت في مسوح البراءة وبكت بين يديه بدموع غزيرة عندما قرأ لها أنشودته الجديدة عن محاسن الصحراء الغربية (التي اكتشف فيما بعد أنها لم تعرفها ولم تسمع حتى بذكرها، بل ولم تشأ يوماً أن تعرفها، ولا أن تسمع بذكرها، لأنها لم تحلم في حياتها بشيء كما حلمت بالفرار من الصحراء إلى أبعد أرض مثلها في ذلك مثل كلّ النساء). ولم يقف على حقيقة أمرها إلاّ يوم اقتحم عليه صاحبها خلوته شاهراً في وجهه مدية فظيعة من النوع اللئيم الذي اعتاد أهل الصحراء أن يطعنوا به سحرة الأدغال الذين لا يهلكون بالأنصال التي يهلك بها بقيّة الناس. اشتبك معه في عراك مميت لينتزع من بين يديه سلاحه الفظيع، ولكنه لم يفلح في ذلك إلاّ بعد أن تمكّن الشقيّ من إصابته بجراح بليغة في منكبه الأيمن.

بعدها قرر أن يقلع عن الزيف.

أقلع عن دمغ الجلود بالأحافير، وتلطيخ الألواح بالألوان لا ليستجلي الأكذوبة، ولكن لكي يذرّ الرماد في العيون ليقلب الحقيقة

باطلاً، فاشمأزّ وشعر بالغثيان، وقال للملأ أنه يُفضّل أن يهلك جوعاً على أن يمضي في تحرير متون الزور لأهل الزور.

تخلّى يوماً عن اللّعب، ولكن اللّعب لم يتخلَّ عنه.

فقد قرّر يوماً أن يحتفي بالخلاص فاحتكم إلى سلطان الدهاء القديم الذي حرّره يوماً من مكائد شقيق الأم الذي نصّبته نواميس الأجيال على الصحراء أباً بدل الأب، وربّاً بدل الربّ.

استنزل في أشعاره الصحراء من عرشها وحصرها في جرم حسناء أرضية. استنزلها في جرم معشوقته الجنيّة التي فقدها يوماً بمكيدة الخفاء ولم يستطع أن ينساها أبداً، فتغنّى في اللحون بفتنتها التي إذا أبصرها أنبل الفرسان أو أشدّ الأبطال فقد صوابه ووقع مغشياً عليه. لم يبحث لمديحها عن استعارة من استعارات الأقدمين. ولم يفتّش للتعبير عن حُسْنها عن عبارة من معجم السِّيَر الأولى. ولم يستلهم من أغاني العذارى نسقاً من أنساق الشجون لكي يحلو في الأذن إيقاع أنشودتها. لم يفعل كل هذا لأنه لم يكن في حاجة لذلك كلّه. لم يكن في حاجة لذلك لأن حسناء الجِنّ كانت في حياة الصحراء الحسناء التي لم يعرف أهل الصحراء لجمالها مثيلاً حقًّا. لأن حسناء الجنّ لم تكن حسناء جنّ، كما لم تكن حسناء أنس أيضاً، لا لأنها سلالة زاوجت بين أهل الخفاء وبين أهل الخلاء، ولكن لأن ما أطلق عليه الناس حسناء جنّ لم تكن سوى الصحراء نفسها. فكيف فاته ذلك؟ كيف تغنّى ببهاء الصحراء مختنقاً بغصّة حبّه القديم دون أن يخطر بباله أنه عندما تغنّى بجمال الصحراء لم يكن يتغنّى إلاّ بجمالها هي، جمال فقيدته

هو. ويوم يتغنّى اليوم في أنشودته الجديدة بجمال المرأة، بجمال الحسناء الأرضية، إنما يتغنّى بجمال فقيدته أيضاً؟

بعد أن فرغ من معاندة حنينه ذهب إلى السوق وقرأ الأنشودة على الملأ فهلّل من هلّل، وناح من ناح، وبكى من بكى، وسقط في الزحام من سقط مغشياً عليه، فتململ في النفوس الوسواس، واستيقظت في الأفئدة فتنة كانت نائمة. فهبّ من عرينه غول الحسد!

هبّ غول الحسد فتستّر نفر بستور الظلمة ليحيكوا ضد صاحب النذر خيوط المكيدة.

قيل إنهم ذهبوا بالوشاية إلى وليّ أمر الواحة وادّعوا هناك أن الدخيل المجهول الذي لم يعلم أحد من أين جاء قد دخل الواحة لنشر البدعة، واستبدال آلهتها بآلهة أخرى، وليس أدلّ على ذلك من إصراره في أغانيه على تنصيب الصحراء على الواحة ربًّا بدل أن ينصّب الواحة على الصحراء ربّةً. فما كان من وليّ الأمر إلاّ أن استصدر فرماناً يقضي بطرده من ربوع الواحة على الفور ليجد نفسه في السبيل طريداً من جديد.

12 ـ عن الحقيقة الملقّبة بلسان الأجيال «تيدت»

«يرى الناس في الإنسان الذي امتلك الحقيقة عدوًا لدوداً، لأن من لم يمتلكها ناموسه الاستخفاف، أمّا من امتلكها فهو الوحيد الذي يفتديها».

(ترتوليان)

في المدينة الهاجعة في حضيض الجبل رأى البحر لأوّل مرّة: أزرق اللون كأنه يحاكي زرقة السماء التي تتمدّد فوقه عاريةً، ساكنةً، لا مباليةً، أبديةً كأنها بدورها تحاكي الصحراء التي أقبل منها. والبحر؟ البحر أيضاً يشابه الصحراء في امتدادها، في أبديّتها، في تسامحها، في طغيانها، في غموضها، في تستّرها على كنوزٍ تعد بها ولا تهبها.

وها هو يتوثّب كوحش يحاول الإفلات من عقال. يتمخّض كأنه ينوي الفتك بعدوّ مجهول، ولكنه لا يذهب في تمرّده بعيداً، يكتفي بلثم الشطوط الصحراوية الظمأى ليرتدّ إلى الوراء دون أن يكفّ عن ترديد أنشودته الخالدة.

كانت شطآنه (في ذلك اليوم من أيام الخريف) خاوية خواء الصحراء، مما شجّعه لأن يتخذ من أحراش الشطآن المجاورة مأوى يتيح له الخروج إلى الخلوة الرملية الممتدّة على طول الساحل ليستمتع بمناجاة حميمه الجديد الذي وجد في رحابه بديلاً لصحرائه المفقودة، متأمّلاً طلسم اللحون في أغنيته الأبديّة.

أقام في كوخ الجريد على الشطآن الخالية، كأنّ معشوقته العزلة

التي حملها معه في قلبه منذ خروجه من أرباع صحرائه الكبرى أبت إلاّ أن تسبقه إلى ديار العمران لتبدع له من حزنها بيتاً. اعتاد أن يرتاد الأسواق، ويناكب الخلق في الزحام، ويحفر بمداد الدّم شجونه على الرقوق المعلّقة على الجدران، ويتخذ لنفسه صنوف الخلاّن. ولكنه لا يلبث أن يهرع عائداً إلى كوخه المهجور على الشطوط الخاوية ليجد هناك عزلته الأبدية في انتظاره. يجد في عزلته الترياق لمحنته الخالدة. لأنه اكتشف أن الاجتماع إلى الأخوان في دنيا العمران لم يعفه يوماً من دائه، بل لم يزده إلاّ اغتراباً وإحساساً مميتاً بالفقد والبلبال واللاجدوى.

كان يدري أن العهد القديم الذي عقده مع المجهول قد جعل منه مخلوقاً ليس ككل الخلق، مخلوقاً معجوناً من طينة أخرى. ويبدو أن ختم العهد هذا وصمة لا تخفى عن أعين الأغيار.

فقد اكتشف أنهم يعاملونه باحتراس شديد. احتراس لم يلحظ أنهم عاملوا به مخلوقاً آخر. كأن العلامة التي اختطتها يد الخلفاء مطبوعة على جبينه وليست محفورة في قلبه. كأن ما انطبع في مجاهل الوجدان لا بدّ أن تفضحه العين. تفضحه العين حتّى لو أفلح في إخفائه اللسان. ويبدو أن في ثنايا هذه الأحجية يكمن سرّ المكائد التي حاكتها ضدّه أيدي أهل الكيد في مستقرّه الجديد وليس بسبب زلل اللسان كما توهّم مراراً. وقد سمع الأغيار الذين عرفهم يتهامسون ليردّدوا خرافة تقول أن الغريب يخفي سرًّا. وردّد آخرون وراءهم شائعة أخرى أكثر استثارة للريبة تقول أنه إنما يخفي في عبّه مكيدة!

ولهذا لم يندهش يوم تقدّم منه أحد الأغيار (الذين لم يجدوا حرجاً في أن يسمّوا أنفسهم أخلاّء) ليقول له أن الناس بدأت تخوض

في سيرته التي تدعو لزعزعة الكيان وتهدّد الرخاء بإدخاله إلى ربوع العمران آلهة أخرى. وعندما أبدى دهشته من هذا الزعم أضاف الرجل إلى شكوكه شكوكاً أخرى عندما سأل بصرامة: «ألم تقل يوماً أن دينك ليس من ديننا، وحقيقتك ليست من حقيقتنا؟»، فأجاب بأنه قال أقوالاً كثيرة، ولكنه لا يستطيع أن يتذكر كل ما قال. فما كان من ذلك الدّعي إلاّ أن حدجه بفضول ليقول باقتضاب: «إذا جرت سيرة الغريب على ألسنة الناس فاعلم أن هذا نذير شرّ!».

لم ينتبه لإيماء الخطر المتستّر في قول الرجل لأنه انهمّ بترويض لحن مباغت من لحون الحنين التي تخرج به من ساحة الدنيا كلّما انبثقت وحياً من دنيا المجهول. فالمدن دوماً حلم الشعراء، يقول الوحي المجهول، ولكنها أيضاً الصخرة التي تتحطّم عليها أحلام الشعراء.

فلم يحدث في تاريخ الصحراء أو في تاريخ ما جاورها من كيانات العمران أن استنجد بها شاعر من شعراء الأجيال حاملاً لهفته في قلبه، بل حاملاً قلبه في كفّه، فاستجابت هذه الأركان للنّداء. كانت أمّة الشعراء تدخل البنيان بقلوب مغسولة بحمّى الحنين، لتخرج من صفوف هذه القبور بقلوب مغسولة بنزيف المنفى.

فكيف يتجاسر هؤلاء الأوغاد (الذين يتحصنون وراء الجدران) فينعتون رحاب الصحراء بالمنفى، في حين يغلقون أبواب قلوبهم كما يغلقون أبواب جدرانهم في وجوه الأغيار (سواء أكانوا أقرباء أم غرباء) ليخفوا عن هؤلاء حقيقتهم، ويربّوا نحوهم في نفوسهم ألعن أصناف العداوة؟.

لقد عرف أناساً من جيله يعبدون الخفاء ويعاندون الأشعار. كانوا أشقياء مثلهم في ذلك مثل كل الشعراء. تمتّع منهم فريق بأصالة لا تنكر، وتحلّى آخرون منهم بزيف منكر. وهناك فريق ثالث من هذه القبيلة استهواهم الوجع المجبول بكلّ لحن، وبكلّ حنين، وبكلّ قول انتمى إلى سلالة الشّعر، فنسوا الشّعر، نسوا الوصيّة الجسيمة التي تتحصّن في أدغال الشّعر، فأضاع الأشقياء الهويّة، وفقدوا السبيل إلى رسالة الشعر وأصحاب الشعر، لتتحوّل حياتهم شعراً بديلاً للشعر الذي أعجزهم الإنهمام بالألم أن يقولوه للملأ.

في تلك الأزمان كان نذير السوء ذاك يحوم حوله كالقدر ليكرّر عليه وصيّة النحوس: «الأمم تغفر كل شيء، ولكنها لا تغفر التبشير بأرباب الأغراب، فاحترس!»، فيتساءل ببراءة الأغراب: «عن أي أرباب أغرابٍ تتحدّث؟» فيجيبه الدّعي بلا مبالاة الدهاة: «الأرباب ليست مخلوقات تدب على قدمين. الأرباب جبابرة تتحصّن في الأشعار!»، فيتأفّف ليجيب باستخفاف: «ليس في أشعاري غير فأرة وديعة يدعونها في لغة الصحراء تيدت!». فيتساءل النذير بلهجة الارتياب: «تيدت؟»، فيجيب المريد بابتسار: «الحقيقة!».

فيتضاحك اللئيم حتى يستلقي إلى الوراء ليحتج بالقول: «وهل في دنيانا كلّها ربّ أقوى من هذه الأحجية التي تسمّيها في لسان صحرائك «تيدت»؟، فيتشبّث بتلابيب الصمت قليلاً، ثم يقول بصوت من يخاطب نفسه: «إذا لم يحمل الغريب في قلبه «تيدت» فلماذا يغترب؟». يقهقه اللئيم بأعلى صوت قبل أن يعلن: «مرحى! مرحى! ها أنت تعترف بأن الإنسان في هذه الدنيا لا يغترب لسبب دنيوي كما

يظنّ البلهاء، ولكن لسبب خفيّ!». في النهاية لم يجد بُدًّا من أن يعترف له بأنه لن يستطيع أن يتوقف عن التغنّي بمعشوقته «تيدت» في اللحون، فوضع بهذا الاعتراف حدًّا للجدل.

الاعتراف وضع حدًّا للجدل حقاً، ولكنه لم يضع حدًّا للشكوك. فقد أقبل عليه مخلوق مريب بعد أيام قائلاً أنه جاء رسولاً يستجلي أمر بدعة يأبى عصاة هذه الأزمان إلاّ أن يتخذوها ذريعة لذرّ الرماد في عيون الدهماء والاستيلاء على عقول أمثالهم من الغوغاء والبلهاء. وعندما سأله عن حقيقة هذه البدعة حدجه بنظرة خبيثة ولكنه بدل أن يجيب على السؤال حدّق في وجهه مليًا قبل أن يطلق في وجهه السؤال الصارم: «ماذا تريد؟». حدّق في وجهه أيضاً قبل أن يجيب على السؤال بسؤال: «وماذا بوسع المريد في عرفكم أن يريد؟». خيّم سكون. سكون انتهكه هدير البحر وهو يتوعّد ويحشد فلوله ليستولي على رمال الشطآن. تكلم الداهية أخيراً: «المريد في لساننا اسم على مسمّى حقًّا، المريد لا يكون مريداً إذا لم يُرِد. ولكن العجب هو أن هذا المخلوق الذي صنع لنفسه اسمه في سيرة دنياه هو أوّل مخلوق أخفى على دنيانا اسمه!». حدجه بفضول. تبادلا نظرة طويلة، خفيّة، قبل أن يتساءل المريد: «ماذا تريد أن تقول؟». أجاب الداهية دون أن يتخلّى في نظرته عن إيماء الشّكّ: «أردت أن أقول أن ما يريده المريد دائماً مجهول برغم أنه أجدر الناس بأن يجاهر بما يريد ما دام لا يريد أن يتنازل عن اسم المريد!». ساد الصمت مرّة أخرى. سكون ما لبث اليمّ المجاور أن استباحه من جديد في حملته الجديدة على الشطوط. همس المريد كأنه يخاطب نفسه: «مَنْ منّا، يا مولانا، يدري ماذا

يريد؟». رنا خارج الكوخ ليسرح في خلوة اليمّ العظيم التي تجاري في فتنتها فتنة معشوقته الصحراء. من فسحتها تكلّم كأنها لقّنته نبوءة: «لو كنّا نعرف ماذا نريد، يا مولانا، لكنّا سعداء!». تلألأ في مقلتيه حزن الأجيال، حزن ليس من طينة دنيوية. حزن مستعار من مجاهل الأبدية، قبل أن يضيف: «المريد مريد ليس لأنه أول من يعلم ماذا يريد، ولكن لأنه آخر من يعلم ماذا يريد!». ولكن الداهية احتجّ: «لم آتِ إلى هنا لكي نتبادل الأحاجي، ولكن لكي تجيبني على سؤالي: ماذا تريد؟». رفع إليه عيناً أخرى. عين غاب في مقلتها حزن الأبدية ليحلّ فيها وميض التحدّي. وميض العناد الذي دسّه كاهن الأجيال تميمة في دمه يوماً ليتحوّل له في رحلة دنياه زاداً. قال بلسان العناد: «أستطيع أن أبوح لك بما يريدني لا بما أريد، لأني أعلم بما يريدني، وأجهل الناس بما أريد!». تابعه الداهية بفضول ولكنه لم ينبس فأضاف: «ما يريدني هو «تيدت» التي تسمونها في لغتكم حقيقة، ولكن ما أريد المولى به أعلم. لأنه يعلم أني لو علمت لصرت مثله ربّاً لا بشراً فانياً. هل يدري مولاي لماذا؟». لم ينتظر جواباً على سؤاله. سرح في عرض البحر ليبثّه نبوءته: «لأن السعادة كنز من نصيب الأرباب الخالدة لا الأشباح الزائلة!».

عاد البحر يستبيح سكون الشطّ الأبدي. وعادت شمس الظهيرة تستبيح خلوة الأرض ومتاهة السماء.

قال الداهية بعد صمت طويل: «عن سرّ السعادة لا تسأل. لأننا لم نرث عن أسلافنا وصيّة تقول أن الخلود برهان على السعادة، ولا الزوال برهان على شقوة. بل لم نرث إلاّ الوصايا التي تؤكّد أن

الأمس أنبل من اليوم، واليوم أنبل من الغد. فأي خير يمكن أن يُرجى من حياة نعيش خالدين فيها أبداً؟ من أدرانا أن الأرباب في خلودهم سعداء؟». كان حانقاً لسبب خفيّ، ولكن المريد قال ببرود لم يكن من طبعه يوماً: «لو سمعك القوم لاتهموك بالتجديف في حقّ الأرباب». ولكن الداهية تجاهل التحذير لأنه أراد أن يضع حدًّا للجدل: «دع السعادة للموتى لأنهم أدرى بحقيقتها وأخبرني لماذا يلجأ كل من أراد تدبير مكيدة للأكذوبة الفظيعة التي تسمونها في لغتكم «تيدت؟».

استولى على المريد ذهول. تساءل: «هل تسمّي الحقيقة أكذوبة؟». تزعزع بدن الداهية بضحكة مغتصبة. قال بيقين لا يحسنه إلاّ الدهاة: «وهل الحقيقة حقيقة؟».

لم ينتظر جوابه، حرث الأرض بسبابته النحيلة ليقول: «لو كانت الحقيقة حقيقة كما تدّعي لما تحلّت بخصال الحسناء التي تحدّثت السِّيَر فقالت أنها كانت تنسج بالنهار النسيج الذي تفكّ خيوطه بالليل، وتنسج بالليل النسيج الذي تفكّ خيوطه بالنهار. الحقيقة سيل مارد يتدافع في الوادي. هل شاهدت سيلاً يضيق به صدر الوادي؟». لم ينتظر جواباً. قال بحرارة مسكون: «دنيانا هي الوادي، وحقيقتها السيل الذي يعبر. فكيف لا تريدني أن أنعت بالأكذوبة ذلك اللغز الذي يعبر؟ كيف تريدني أن أعترف بالحقيقة إذ كانت الحقيقة لا تريد أن تثبت على حال؟». سكتا. عاد السكون المستباح بهدير البحر يسود. قال المريد بسكينة لم يعهدها في نفسه: «الحقيقة الحقيقية، يا مولانا، لا بدّ أن تعبر. الحقيقة الحقيقية تسيل كالسيل لأنها تنشد، تغنّي،

تبدع، لأن البذار لا تنبت زرعاً إن لم ندفنها، إن لم نقتلها. حقيقة الأغيار وحدها عاطلة عن العمل، أما حقيقة الأخيار فشريعتها المسعى!». هأهأ الداهية بضحكة استخفاف. قال: «هل يعني هذا أن الحقيقة حقيقتان وليست حقيقة واحدة؟». أجاب المريد بلا تردد: «بلى. الحقيقة دوماً حقيقتان: حقيقة جامدة جمود الأصنام، وحقيقة عابرة عبور الزمان». هلّل الداهية: «مرحى! مرحى! ها أنت تعترف بأن الحقيقة الزائلة هي الأجدر بلقب أكذوبة!». ولكن المريد اعترض: «الحقيقة الباقية ليست الحقيقة الجامدة، بل الحقيقة الباقية هي الحقيقة العابرة!». الداهية لم يستسلم. في مقلتيه لمع خبث قبل أن يسأل: «هل تصدّقني إذا قلت لك أن الأكذوبة أكذوبتان؟».

تمهّل المريد قبل أن يجيب: «إذا كانت الحقيقة حقيقتان فاليقين أن الأكذوبة ليست أكذوبتان فحسب، ولكن الأكذوبة أكاذيب، لأن الأكذوبة ترتدي ألف قناع وقناع، بل ألف ألف قناع. وحقيقتنا الأخرى، حقيقتنا الصماء المشلولة بأغلال الجمود تنتمي بسلالتها أيضاً إلى جنس هذه الأكذوبة!».

حدّق فيه الداهية بجفن لا يرفّ. حدّق طويلاً قبل أن يسمعه منطوق الحكم: «بعد هذا كلّه تدّعي بأنك لا تروّج للبدع، ولا تنصّب على ديارنا أرباب الأغراب؟».

نطق داهية الزمان بالحكم فلم تتأخر الأيام بقصاص ولي الأمر. فقد زاره الأعوان في إحدى الليالي وجرجروه إلى الفُلْك ليركبوا به البحر.

ركبوا به ليلاً، وساروا يوماً، يومين، ثلاثةً. في اليوم الأول أخبروه أن ناموسهم هو الذي قضى بأن يذهبوا به إلى البحر، لأنهم اعتادوا أن يبعثوا بأهل الصحراء إلى البحور إذا نزل عليهم قصاص المنافي لأنهم لن يحسنوا السباحة في صحراء البحر، في حين اعتادوا أن يبعثوا بأهل البحور إلى الصحاري إذا نزل عليهم قصاص المنافي، لأنهم لن يحسنوا السباحة في بحر الصحراء.

في اليوم الثالث ألقوا به إلى عرض البحر. وضعوه على لوح خشب عريض، ووضعوا في يده رغيف خبز يابس وقلّة ماء محبوكة من الجلود وسعف النخيل، قبل أن يرتّل الأوغاد على رأسه وصيّة الأجيال: «ألستم أنتم، يا معشر أهل الصحراء، أوّل من ألقى إلى الخلاء بكل من بلغ من العمر عتيًا، وأعجزه الزمان عن تحمّل أهوال الرحيل، لتضعوا له في قبو الحجارة قطرة ماء، وتتركوه أسيراً في يد الصحراء؟ مَنْ روّج منكم لربّ الحقيقة نجا، ومن روّج منكم لربّ الأكذوبة هلك!».

ثم ولّوا. تابع شراع فُلْكهم وهو يبتعد ويبتعد في عرض اليمّ الفسيح حتّى ابتلعته الآفاق، فوجد نفسه وحيداً من جديد في متاهة لم تختلف عن متاهة الصحراء لا في صرامتها، ولا في رحابة صدرها، ولا في أبديّتها، ولا في إغوائها، ولا في وعدها (وعْدها بالخلاص)، ولا في وعيدها (وعيدها بالهلاك ظمأ)!

13 ـ الخطر

«نحن نحتفي بالنّصر بدون مجد، عندما نحقّق غلبة بدون خطر».

(كورنيل)

تمدّد على اللوح الخشبي وراقب شعائر الغروب: تحجّب الأفق بغيهب مغيبٍ ممهورٍ بصبوغ قانية. في السماء تبعثرت غلالات رقيقة من شتات سحب طائشة. على صحراء اليمّ استولى سكون عميق، واللوح الخشبي يطفو فوق المياه مستعيراً بلا مبالاته واسترخائه مسلك الماء، ومستمدًّا تسليمه من تسليم السماء.

لم ينازع، لم يحرّك ساكناً لينازع. لم يمد يداً ليجدّف نحو جهةٍ مّا طلباً للنجاة. لم يتبلبل خوفاً، لم يزعزعه مرأى اليمّ الرهيب الذي يتسلّط على كل الأركان، ويتوعّد كل من رمت به الأقدار إلى حرمه بأقصى قصاص. اكتفى بالابتسام استخفافاً وركن. ركن إلى قطعة الخشب. ركن إلى قبضة القشّ واستسلم. استسلم لمشيئة اليمّ لأنه يدري أن رحمة اليمّ اليوم أعظم من رحمة الخلق. لأنه يدري أن الاحتماء بالجلاّد أدهى من استجداء رحمة الكيد. لأنه يدري أن سلطان الخفاء الذي يخفيه البحر كما تخفيه الصحراء أرحم قلباً في قصاصه من قصاص الناس في رحمتهم. سلّم زمام الأمر لجلاّده الجديد كما سلّم زمام أمره يوم عاش أوّل تجربة في التّيه إلى البعير، إلى أثر البعير، الذي قاده إلى واحة الخلاص. صمّم أن يحتكم في

العلاقة مع غول اليمّ إلى ناموس الصحراء ليقينه بأن صحراء البحر إنما تعتنق الناموس نفسه الذي يعتنقه بحر الصحراء، لأنهما في الأصل ليسا سوى حميمين قرينين تبادلا الأدوار يوم تنكّر أحدهما في مسوح ثانيهما عشقاً وتنكّر ثانيهما في مسوح أوّلهما عشقاً كما تروي سير الأجيال. لقد ظنّ البلهاء أنهم أتقنوا حبك مكيدتهم يوم قرروا أن يرموا إلى أرباع الصحراء بأهل البحر تنفيذاً لقصاص المنفى، ورموا إلى أحضان البحر بأهل الصحراء. ولم يدروا أن الصحراء ليست سوى بحر، والبحر لم يكن يوماً سوى الصحراء.

وناموس الصحراء الذي يحرّم في وصاياه على التائه أن يبرح مكانه هو الناموس ذاته الذي يعتنقه البحر. فلماذا يخالف الوصايا وينازع ليحرّك السواكن؟ لماذا يجدّف إذا كان التجديف ليس سوى عناداً لا يغتفره لا الخفاء ولا السماء ولا الجلاّد الأعظم؟ ولماذا يتبلبل إذا كان يعلم أن البلبلة قرين الوسوسة، والوسوسة حميم التهلكة؟ بل لماذا يخاف إذا كان يعلم أن الخطر الذي يخفيه لنا الناس بنواياهم أكبر شرّاً من الخطر الذي يحدّق بنا في رحاب الصحراء أو في أحضان البحر؟ السرّ في التسليم. الكنز في الانتظار. النجاة في الركون إلى مشيئة السلطان.

لقد تعلّم في زمن الصحراء أن سلطان الماء لا يُقهر إلاّ بالاستسلام للماء. تعلّم ذلك عندما كان يتعلّم السباحة في المستنقعات المتخلفة عن السيول. وتعلّم ذلك عندما كان يداهمهم السيل على حين غرّة فلا ينجو من بطشه إلاّ من هادنه، وطاوعه، وسلّم له زمام الأمر. تعلّم أن سلطان الماء لا يُقهر إلاّ بالاستسلام للماء أيضاً عندما

كان يتلذّذ بالعوم في مياه العيون يوم نزل الواحة. فآهٍ لو تحوّلت ساحة الدنيا إلى ساحة ماء كي يداوي كيدها وأوجاعها وبلبالها بالاستسلام لها كما يستسلم للماء لا بالمعاندة وأجناس العنف والاشتباك! آهٍ لو يستطيع أن يتحرّر من وصيّة العناد التي تسري في الدّم وتكبّل القلب بسلاسل الحديد! آهٍ لو يستطيع أن يتحرّر من شعلة النار التي دسّها كاهن الأجيال الرهيب في جوفه! بل آهٍ لو يستطيع أن يتحرّر من وصيّة الوصايا نفسها، من «تيدت» العاتية، من القصاص الجائر الذي جعله الخفاء حكراً على أخياره دون أن يعلم أنه انقلب شقاء في رقاب رجاله! آهٍ لو يتحرّر من هذه التمائم كلّها ليصير مخلوقاً يعشق النساء ككل المخلوقات، ويهوى اللّهو ككل المخلوقات، ويستسلم لسيول الدنيا ككل المخلوقات، ويغنّي أغاني السلوى ككل المخلوقات! يغنّي أغاني السلوى لا الظمأ. يغنّي أغاني الطرب لا أغاني الحنين. يغنّي أغاني الحبّ لا أغاني الوجْد. يغنّي أغاني الخلْق لا أغاني المجهول. يغنّي أغاني الدنيا لا أغاني «تيدت» الموجعة.

في سماء الغيهب تلألأ أوّل الأنجم منذراً بهجوم أوّل ليلة في أحضان الوطن المجهول. بعد قليل أبصر عنقود الشقيقات السبع أيضاً فتفاءل واستأنس. تفاءل لأنه أيقن بأنه سليل ينتمي بجنسه إلى سلالة الثريّا لا لسلالة البشر. واستأنس لأنه أدرك أنه في أمانٍ ما ظلّ في الدنيا سماء، وما ظلّت في السماء شقيقات سبع أطلق عليهن «آنهي» الضائع اسم «أشيت أهض»[1].

(1) «أشيت أهض»: الثريّا (بلسان الطوارق).

فلماذا يخاف إذا كان يعلم أن السوء لن يمسسه ما دام في الأعالي سماء، وما دام في السماء نجوم حظوظ؟ أيّ عدوّ يستطيع أن ينزل الشرّ بمخلوق احتمى بغموض السماء واحتكم في فراره بتميمة الثريّا؟ أليست السماء هي الرقعة التي يقرأ في قرطاسها العرافون وأهل الدهاء علامات الأرض وأقدار أهل الأرض؟ أليست الثريّا في السماء أثراً يهتدي به أهل التّيه كما اهتدى بأثر البعير على الأرض في رحلة التيه يوماً؟ فلماذا يخاف؟ ولماذا لا يسلم زمام الأمر بيد الخفاء الذي لم يختفِ عن الأنظار إلاّ ليحرّك دُمَى الأبصار من وراء الأستار؟

في السماء تضاعفت كثافة النجوم. الثريّا أيضاً تمادت في وميضها وازدادت لجاجةً في لغة الإيماء كأنها تلحّ في القول. كأنها تريد أن تبوح له بسرّ. لأن النجوم لا تومىء عبثاً أيضاً. لأن السماء كالصحراء لا تتكلّم خواء. لأن السماء تقول أيضاً وصيّة بلسان النجوم إذا احتدّت، وتقول وصيّة أخرى بلسان النجوم إذا بهتت أو خفتت.

كما تقول الصحراء وصيّة بالريح إذا هبّت، وتقول وصيّة أخرى بالريح إذا سكنت أو سكتت. وها هي الريح تغزو الفراغ. ها هو البحر يتنفّس برئة الريح ليقول أحجيةً مثله في ذلك مثل حميمته الصحراء تماماً. ها هي الأنسام تداعب صحراء الماء بوسوسة عاشق فيستجيب الغمر العظيم برجفةٍ خفيفةٍ.

ولكن. . . ولكن ما له يرى سلالة الثريا تكتئب وتغتمّ؟ ما له يرى الشقيقة التي ينعتها الصغار بالعمياء تخبو وتخبو حتى تنطفىء؟ ما له يرى القرينة الرجراجة تضمحل وتتضعضع كما تضمحل وتتضعضع في

الصحراء عندما يتهدّد الوطن هبوب الزوبعة؟ أيريد البحر أن يستضيفه بزوبعة وهو الذي ركن إليه وآمنه على نفسه واحتكم إلى حرمه؟

هبّت أنسام أخرى أشدّ سطوة فترجرج اليمّ. استجاب للنداء الخفيّ بالرجرجة، فتزعزع اللوح وتهادى به يمنةً ويسرةً. هبّت موجة أخرى ففزّ اليمّ برجرجة أقوى. تكلّم الماء برطانة مجهولة، فلم تلبث موجة أن قفزت إلى أعلى لتوجّه له صفعة. ثم..

ثم توالت الصفعات. توالى هبوب الريح وتداعى السلم. رقص به اللوح بحماس، ولكنه تشبّث باللوح بكلتا يديه دون أن يتخلّى عن التخلّي. دون أن يتخلّى عن التسليم.

اكتأبت في الأعالي السماء، واختفت صفوف الأنجم واحدة وراء الأخرى، فتمادى الريح، ودمدم الغمر بالوعيد. لطمته موجة أخرى، ورمت أخرى باللوح بعيداً. ولكنه لم يتخلَّ عن اللوح، ولم يتخلَّ عن التخلّي. لم يعاند. لم يقاوم. لم يحاول أن ينجو. السرّ كما تحدّثت به الصحراء في ألاّ تحاول أن تنجو. السرّ في أن تسلم زمام الأمر لسيل الوادي. السرّ في أن تراهن على الهلاك لا على النجاة. السرّ في أن تطلب الموت لا الحياة. ووصية الصحراء لن تختلف عن وصية البحر ما دام الحميمان يعتنقان الناموس نفسه. وغمر السيل لن يختلف عن غمر اليمّ ما دام السيل يجري في قيعان الوديان ماءً، والبحر يتوثّب في هاوية الأرض ماءً.

اندفع الريح بجنون أشدّ فازداد اضطراب اليمّ. لم يعد اليمّ يمًّا، ولكنه انقلب وحشاً: يزمجر زمجرة جمل في موسم قرع النوق،

ويزبد. يزبد زبد جمل أهوج، هائج، أيضاً. ولكنه لم يفزع ولم يجزع. ترك له الزمام يهدر ما شاء، ويتمخّض ما شاء.

كانت الأمواج تشيّع لوحه البائس إلى أعلى، ترمي به في الهواء ليسقط على هامات الموج من جديد. صار له البحر الثائر أرجوحة. صار للوحه البئيس أرجوحةً. ولكنه لم يخف. لم يخف ولهذا السبب كافأه اليمّ باللذّة. بلى، بلى تلذّذ بالقفز في الهواء. تلذّذ بالأرجوحة المدهشة التي لم تدلّله بها حتى أمّه الصحراء، فابتسم. ابتسم وهو يتشبّث بطرفي اللوح بكلتا يديه ويتطلّع إلى السماء. تطلّع إلى السماء وهو يبتسم حتّى تبدّت النجوم. أجابت النجوم على بسمته ببسمة. ضحكت في وجهه محبوبته الثريّا فعرف أن المحنة تقهقرت والخطر زال. هدأ الريح تدريجيًّا فهدأ اليمّ تلقائياً.

هدأ اليمّ فغفا. غفا ولم يستيقظ حتى حرقت شمس الصباح وجنتيه ويديه. كانت السماء زرقاء عارية كأنها مرآة هائلة تستعير زرقتها وعرّيها من اليمّ المتمدّد أسفلها. أو كأن اليمّ هو الذي يستمد الآن زرقته وعريّه وسكينته، بل ولا مبالاته، من زرقة السماء وسكينتها ولا مبالاتها. كأن البحر وسماء البحر قرينان حميمان لا يتجهّم أحدهما إلاّ ليتجهّم الآخر، ولا يصفو أحدهما إلاّ ليصفو الآخر.

تناول من كمّه قلّة الماء وبلل فمه بقطرة، وتجرّع قطرة أخرى محاذراً أن يطلق العنان للبدن الظامىء فيرتوي فيخالف بذلك الشقّ الثاني من الوصية الصحراوية التي تقول: «إذا ضلّ بك السبيل فاحترس أن تسعى لأن في سعيك المزيد من التّيه، واحترس إذا شربت أن ترتوي، أو إذا أكلت أن تشبع...». بلى. أجسادنا أطفالنا الذين إذا

دلّلناهم أضعناهم، وإذا قمعناهم كسبناهم. بلى. البدن شكوة من المأكل لا تشبع، ومن المشرب لا ترتوي. ولكنها تكتفي إذا عوّدناها على الحرمان، وتنقذنا من هلاك إذا قتلنا فيها النّهم. ولهذا احترس أن يلتقم من رغيف الخبز أكثر من قطعة شرع يلوكها طويلاً لا لعلمه بأن الشبع خطيئة المسافر، ولكن ليقينه بأن اللقمة توقظ الظمأ، والظمأ لا الجوع هو ما يخذل أنبل الرجال.

بعدها قرّر أن يقتل الوقت. قرّر أن يقتل الوقت فروّض لحناً شجنياً قديماً. روّض اللحن زمناً قبل أن يبدأ في شحن اللحن بذخيرة أخرى، بذخيرته هو لا بذخيرة شعراء الأجيال الذين سبقوه.

أستلهم من ضياعه أبياتاً شعرية رآها حسنة لأنه وجدها مجبولة بالمنفى. لأنه وجدها مغسولة بحمّى وَجْد مجهول عرفه كل من عبس في وجهه الخفاء يوماً ورمى به بعيداً. رآها حسنة لأنها لم تتغنَّ بهبات الدنيا، ولكنها تغنّت بالحقيقة المسماة في لغة الأجيال «تيدت». تغنّت باللغز الذي لم يكن لعين أن تراه ولا إذن أن تسمعه، لأن القريحة التي حدّقت في وجه الموت وحدها تستطيع أن تقف له على سرّ. بلى. القريحة التي لا أمل لها في العودة إلى الوراء وحدها تستطيع أن تقترب من حَرَم «تيدت» المهيب، وتتلقّى من يده الوصية للأجيال. الآن فحسب أدرك لماذا ردّدت أجيال القبائل ملاحم الأقدمين وما زالت ترددها إلى اليوم، وسوف تردّدها إلى الأبد. الآن، وهو يقف على حافة الوادي الأخرى، يستطيع أن يفهم أن الوصايا التي تحيا الصحراء على هديها منذ أزمان وأزمان، والمبثوثة في ثنايا الملاحم الأولى، لم يكن لها أن تصمد في العراك مع سيول الأعوام، ومع

تعدّد الألسن التي رددتها، لو لم تقلها الألسن التي تنتمي إلى فئة الممسوسين الذين حدّقوا في هاوية الخفاء طويلاً، بل ولم يكن لهؤلاء أي أمل في العودة إلى الوراء. لم يكن لهؤلاء المريدين الأشقياء، السعداء بشقائهم، أي نيّة أيضاً في العودة إلى الوراء، في ما يسميه الأغيار النجاة لأنهم بلغوا في السبيل ذلك المكان الذي لا يستوي فيه مصير الهلاك بمصير النجاة فحسب، ولكن يصبح فيه مصير النجاة هو القصاص، وينقلب مصير الهلاك هو الخلاص.

في هذا البرزخ وقف هو أيضاً في ذلك اليوم الذي روّض فيه أوّل أبيات تلك الملحمة التي كتب لها أن تحيا أيضاً. تحيا إلى الأبد، لأن المريد يومها لم ينهل من إلهام البادية ليضع لها حجر الزاوية، ولكنه شرب من مياه الخافية قبل أن تجري على اللسان الأبيات للتعبير عن حقيقتها. والأجيال التي تلت والتي كتب لها أن تردّد أبياتها لم تخطىء يوم قالت أن وصايا الملحمة التي أطلقت عليها القبائل اسم «المراثي»، لم تكتب بناموس الحنين كما كتبت الملاحم التي سبقتها، ولكنها كتبت بناموس الخفاء الذي أبدع الحنين وبثّه في نفوس الصحراويين وسوسةً لا يملكون إلى الخلاص منها سبيلاً. ولو لم تكتب بهذا الناموس لما صارت للقبائل التي ورثتها ناموساً لا يختلف عن الناموس الأول «آنهي».

ويُروى أيضاً أن المرثية التي قالها المريد في ذلك اليوم بلسان الموت ونال بها الخلود، هي الطلسم الذي جلب له نجاة كان منها يائساً. فبعد تلك الليلة التي صارع فيها مارد الزوبعة، جاء دور الحيتان. جاءت هذه الغيلان البحرية رسلاً لتنفيذ الشقّ الثاني من الامتحان.

ولكن المريد الذي استقامت في لسانه الألحان لم يلحظ الحيتان، ولم ينتبه للخطر. لأن من اجتاز البرزخ، وغنّى في الشطّ الآخر بلسان الشطّ الآخر، لن يعجزه أن يستهين بالحيتان. لن يعجزه أن يستخفّ بأخطر الأخطار، لا لأنه حصّن نفسه بالنسيان، لا لأنه مخلوق غائب ولا سلطان لرسل الأخطار عليه بسبب الغياب، ولكن لأنه، بهذا الخيار، لم يعد هدفاً للخطر، لأنه صار هو الخطر. والخطر غول يُخشى جانبه ولا يُخشى عليه. ولهذا رقصت الحيتان حول اللوح المقدّس في ظهيرة ذلك اليوم ونست مهمتها. تراقصت الحيتان حول الخشبة العائمة وخانت رسالتها. خانت رسالتها لأنها أتت لتفوز بغنيمة، ولكنها لم تجد في المكان غنيمةً. بل وجدت على اللوح أغنية، لحناً، شجناً، وصيّة، فصارت في الصفقة هي الغنيمة. صارت غنيمة اللحن، غنيمة الوصية، غنيمة الحقيقة المسماة في لغة الأجيال «تيدت». فما كان منها إلاّ أن رقصت. استجابت للنداء فرقصت. لأن الأشياء كلها للكائنات تصير غنيمة بغياب اللحون، ولكن أشرس المخلوقات تنقلب غنيمةً بأعجوبة الغناء!

وما أن انتهى المريد من المرثية في تلك الليلة حتى هوى على اللوح منهكاً، مستنزفاً، خاوياً. ولكنه لم يستشعر لا الظمأ ولا الجوع. حدّق في السماء المرصّعة بحشود النجوم فابتسم. ابتسم لأن قبيلة الثريا ابتسمت له، بل سمعها تغنّي له. غنّت له وهي تبكي لأنها أرادت أن تعبّر له عن امتنانها. لأنها أرادت أن تحييه جزاء البطولة. لأن في عرف الثريا، وفي عرف الوطن الذي تنتمي إليه الثريا، لا بطولة أعظم شأناً من بطولة قول الوصايا في الشعر. لا بطولة أعظم

من بطولة الذهاب في رحلة إلى الخفاء دون طمع في العودة إلى الوراء، والعودة إلى الديار بالكنز برغم ذلك.

الثريا أخبرته في تلك الليلة أنه أفلح، فأغمض عينيه والبسمة الغامضة لم تفارق شفتيه، فهبّ الغمر يهدهد اللوح بغضون مياهه ليبدع له من السلسبيل أرجوحة لينام. وعندما استيقظ كان شراع البحارة ينتصب فوق رأسه ويصنع له من جناحه ظلاً.

الجزء الثاني

14 ـ الخـروج

«يجب الحيلولة دون خروج الناس بعيداً عن أوطانهم».

(ثاو)

لا يستطيع أن يتذكّر خروجه بدون مرارة. لم يستطع يوماً أن يستعيد خروجه من اليمّ الذي يُقبِّل أقدام الوطن، ويطوّق صحراءه الكبرى من جهة الشمال، دون أن يختنق بغصّة موجعة، ربّما لأنه على يقين أن خروجه هذه المرّة لن يكون خروجاً من أرضٍ هجرها الأسلاف بسبب الجفاف أو الوباء، إلى أرضٍ أخرى وطأتها أقدام الأسلاف أيضاً في بحثهم عن الكلأ والماء، أو في فرارهم من الوباء أو الأعداء. ولكن خروجه هذه المرّة خروج لا عودة منه، لأنه ليس خروجاً من المكان وحده، ولكنه خروج من الزمان أيضاً. فقد عَبَر به أهل البحر الذين التقطوه في سفينتهم خضمّاً وراء خضمّ إلى أن دخلوا اليمّ المعروف بـ«بحر الظلمات». ثم عبروه أيضاً إلى أوطانٍ أُخر لم يسمع بذكرها إلاّ في السّير الأولى، وفي روايات أهل التجارات. أوطان تجاور أمم السور العظيم، ويطلق عليها أقوام هذه الأنحاء اسم: «الديلم» لكثرة الدببة في أرضها المكسوة بالغابات، المغمورة بمياه الأنهار، المسكونة بأهلٍ حمر البشرة، شقر الشعور، عظام الأبدان، تتهمهم القبائل المجاورة بالجنون لأنهم، حسب ما يُروى، أخذوا على عاتقهم مهمّة جسورة، بل وجنونية، تتمثّل في تحقيق

الرخاء الضائع بإعادة بناء «واو المفقودة» على أرضهم. وهو عمل شجاع لم يكن يستحق أن يرجم بتهمة شنيعة كالجنون لو كانت غايته تحقيق نعيم يحلم به كل الناس، ولكن يقين هؤلاء القوم بتحقيق المساواة هو ما استفزّ الأغيار، واستثار حفيظة القبائل المجاورة، لأن الأمم كلّها وإن آمنت على نحوٍ أو آخر بقيام كيان «واو المفقودة» في مكانٍ مّا، في زمانٍ مّا، إلاّ أنهم شكّكوا دائماً في وجود أعجوبة المساواة هذه في أي يوم، واعتبروا سيرتها أسطورة من وحي الشعراء وحدهم.

ولكن دهاة البلاد لم يأبهوا بتشكيك أهل الجوار، ولا بأحقاد الأغيار، لأنهم أيقنوا، كما أيقن أهل الحكمة الذين سبقوهم، أن لا حيلة لاستنزال السعادة على الأرض دون استئصال عرق الأنانية من النفس البشرية. ولا حيلة لاستئصال روح الأنانية دون الاحتكام إلى القوّة. وتُروى عن تحقيق هذه الغاية فظائع حيّرت دمويتها الأجيال، وتناقلتها ألسنة القبائل كمثال على استحالة القضاء على النزعة التي تجري في الدّم. بل القضاء على النزعة التي تجري في الدم أيسر من استئصال الأنانية التي اكتشف الكهنة بعد فوات الأوان أنها ليست طبيعة مجهولة تتخفّى بعيداً في أدغال النفوس، ولكنها هي النفس نفسها، هي الإنسان نفسه. والقضاء عليها أو استئصالها يستحيل دون القضاء على المخلوق الذي يحمل جرثومتها. ولهذا وجد الدهاة أنفسهم يخوضون حرباً دموية ضد أهلهم، ضد أبناء سلالتهم، واكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم إنما يقومون بإبادة القوم بدل إنقاذ القوم. هنا استيقظ في بعض الصدور صوت الضمير فتراجعوا عن يقينهم بشأن

استئصال عرق الأنانية لتحقيق المساواة. فدبّ بين دهاة البلاد خلاف عسير أسفر عن صراع دامٍ سقط فيه الشرفاء، وفرّ من وجه البطش آخرون إلى البلاد المجاورة ليبقى في الحلبة الفريق الأشرس في التعطّش للدماء، والأكثر إصراراً على تحقيق الحلم الخرافي حتّى لو أبيدت الأمّة بأكملها.

قضى الممسوسون على المِلْكيّة في المدن تمهيداً للقضاء على سلطان الفرد، وإقامة سلطان الجماعة، ثم زحفوا إلى الأطراف فانتزعوا الأراضي من أيدي الفلاحين، وقتلوا في سبيلهم كل من اعترض مخططهم، فهلك الخلق، ونفقت المواشي، واحترقت المزارع، فعمّت الفوضى، وتزلزلت أركان البلاد، وانتشرت الأوبئة، واستشرت المجاعة، وتحوّلت الأرض إلى خراب دام طويلاً، طويلاً.

ولكن أعجوبة الحياة لا بدّ أن تشقّ لنفسها السبيل في صلب الخراب يوماً. فبعد أن أحكم الدهاة قبضتهم الحديدية على البلاد وأقاموا نظام مساواتهم القائم على مبدأ قيام الكلّ بالعمل من أجل الكلّ، تململ الناس بالتدريج، ودبّوا في الأرض في محاولة بطولية للتكيف مع ناموس الدنيا الجديد. ولكنهم دبّوا لا كما يدبّ الناس، ولكن كما تدبّ الدُّمى الخاوية. سعوا في الأرض بأبدانهم، ولكنهم غابوا عن الأرض بأرواحهم. سعوا كما تسعى الدواب لا كما يسعى الناس. سعوا لأنهم يجب أن يسعوا ما داموا على قيد الحياة، ولكنهم سعوا بلا حماس، بلا شهوة، بلا غاية، بل وبلا ضمير. وغياب الضمير في لعبة المسعى كان أبشع جُرْم حقّقته بدعة هؤلاء الدهاة عن المساواة.

ذلك أن الإنسان الذي يشكو من غياب الضمير ما هو إلاّ وحش مسلسل لا يمنعه من الفتك بأخيه الإنسان إلاّ القيد الذي يكبّل يديه وقدميه المتمثّل في القوانين التي سنّها الدهاة لإرهاب الوساوس في نفوسهم وقمعهم عن ارتكاب الشرور.

ولكن محنة الإنسان أنه لا يستطيع أن يحقّق السلام بعون القوانين الدنيوية وحدها. الإنسان في حاجة إلى القوانين الإلهية للتحرّر من الشرّ وليس إلى القوانين الدنيوية. الإنسان في حاجة إلى من يقول له أن هذه القوانين هي قوانين إلهيّة، قوانين مستعارة من رحاب السماء وليس من حضيض الأرض، لكي يعتنقها حقًّا، لكي يعتنقها بقلبه لا بعقله، لأنه لا يستطيع أن يسمح بأن تجري فيه مجرى الدم لتصير طبيعة مثلها في ذلك مثل طبيعة الأنانية، إذا اقتنع بها بعقله وحده دون قلبه. هذا أدّى إلى اغتراب الناس عن أحجية لم يتساءلوا عن سرّها إلاّ يوم افتقدوها هي الضمير. واغتراب الناس عن الضمير غرّب الناس عن بعضهم البعض فعاشوا بالاغتراب أشقياء. ولم يجد نداء الدهاة في آذانهم يوم مضوا ينعون لهم الأرباب كلهم ويلقّنونهم بأنهم هم الأرباب ولا وجود لربّ غيرهم.

استبدال أحجية الضمير بتميمة القانون أجّجت في النفوس الكراهة، وقضت على التسامح، ممّا سمّم حياة الناس ببغضاء أشرّ من البغضاء التي دبّت بينهم بسبب غياب الخيرات الدنيوية من ساحات الأسواق، أو التناحر في سبيل الفوز بعطيّة لم يفز بها الجار.

ولكن ما يستثير أهل الباطل ليس هو ما يستهوي المريد الذي يحترق جوفه بنار المسّ. لأن غاية أهل الباطل غنيمة الدنيا، ولكن

غنيمة صاحب المسّ العرفان الذي لا وجود إلى جواره لغنيمة أخرى. وكان أن هرع يسائل الخلق عن بيوت الحكمة ما أن حلّ. ولم يطل به المقام حتى وجد نفسه ينخرط في أوّل حلقة عرفان ذاع صيتها في مدينة المدائن الملقّبة بلغة أهل البلاد باسم «وكسوم» ليتعلّم لسان أهل الدّيلم.

كانت حلقة تقع في أطراف مدينة المدائن المتاخمة لأدغال غابات «البتولا» تضم في صفوفها أبناء الأغراب الذين أقبلوا من كل الأوطان، ولكن يقلّ في حرمها أبناء البلاد. وقلّة أبناء البلاد في حرمها هو ما شجّع الأغيار أن يشكّكوا في أصالة علمها، بعد أن طعن فريق آخر في كفاءات دهاتها، بل ونوايا القائمين على أمرها.

مكث في رحابها حولاً واحداً قبل أن يجدّ في البحث عن بديل لها في قلب مدينة المدائن الملقبة في لسان أهل الديلم باسم «وكسوم». هناك، في زحمة العمران، وفي أرباع الأحياء المكتظّة بأجناس الخلْق، اهتدى إلى الحلقة التي قدّر له الخفاء أن تلعب في حياته، الظّامئة إلى ضروب العرفان، أخطر الأدوار، لأنها استطاعت بعد كفاح أن تهبه مفتاح الكنز الذي بحث عنه طويلاً، ولم يعثر له على أثر لا في امتحان الصحراء، ولا في تجربة الواحة، ولا في جور مدينة الشمال.

ولكنه اكتشف أن فكّ الأسر بالحلقة الأولى لم يكن أمراً يسيراً. لأن ناموس العرفان في بلاد الديلم لا يبيح لمريد العرفان الذي أقبل من أوطان الأغراب أن يلتحق ببيت آخر للحكمة دون موافقة، بل وتزكية، من بيت الحكمة الذي جعله أولوا الأمر وقفاً على سلالات الأغراب منذ القدم.

ولكنه اكتشف فيما بعد أن هذا العُرف لم يكن في الحقّ إلاّ ذريعة تتحجّج بها الحلقات المشكوك في أمرها أو علمها لكي تُبْقِي على المريدين في قبضتها لئلاّ تجتذبهم حلقات العرفان الأخرى ممّا قد يتهدّد كيانها، أو يمهّد لزوال مجدها.

وقبيل انقضاء الأمد استوقفه أحد كهنة الزمان الذين يقومون على أمر الحلقة وذهب به في جولة عبر دروب غابات البتولا المجاورة. ساءله في البداية أسئلة دنيوية تتعلّق بمقامه في أرض الديلم، وحنين أبناء الأغراب إلى أوطانهم، والحيل الكفيلة بالتخفيف من وطأة الغربة. ثم استوقفه ليقول: «إيّاك أن تصدّق ما يردّده الحسّاد عن حلقتنا، واعلم أن لا فضل لحلقة عرفان على حلقة عرفان أخرى، ولا تفوّق لبيت حكمة على بيت حكمة آخر، لأن الفلاح دائماً بيد من يتعلّم لا من يُعلِّم. ورسالة المريد القادم من بلاد الأغراب أن يتعلّم اللسان إذا أراد أن يتعلّم العرفان. ثمّ عليه أن يغمض عينيه ويفتح أذنيه بعد ذلك علّه يستطيع الفوز بمفتاح الكنز. لأن العرفان جنسان وليس جنساً واحداً. جنس في القلب يدركه المريد بمقارعة الخفاء، وجنس في الدنيا لا يدركه المريد إن لم يحترق بنار الباطل!». مضى به شوطاً أبعد في غابة البتولا قبل أن يضيف دون أن يتوقف عن المشي: «لا يدرك سرّ الخافية من لم يحترق بنار البادية. هذا ما أردت أن أقول، فهل تراني بلّغتُ؟».

لم يجب على تساؤله، ولكنه تغنّى بأنشودته القديمة قدم الصحراء التي أقبل منها عندما قال له أنه لم يكن ليرمي بنفسه إلى أبعد البلدان لو كانت غاية التّيه هي العرفان، ولكن اللهفة إلى الحقيقة الملقّبة في

لغة الأجيال «تيدت» هي السبب. فما كان من كاهن الدّيلم إلاّ أن ابتسم ليقول سؤالاً: «وهل تستطيع أن تحقّق في دنياك حقيقة دون أن تعرف من أنت؟». لم يجبه فأضاف: «وهل تستطيع أن تعرف من أنت دون أن تتحمّم بلهب الألم؟».

لم ينتظر منه جواباً، بل أضاف بلهجة غموض: «هيهات أن تعلم قبل أن تتألم، وهيهات أن تتألّم قبل أن تلج الدنيا، لأننا لا نجد إن لم نفقد!».

ولم يدرِ يوم اعترضت سبيله حسناء الديلم أنه إنّما يلج دنيا الكاهن من أوسع باب. لأن عليه أن يعترف (وسوف يعترف منذ ذلك اليوم وإلى الأبد) أن حُسْن حسان تلك البلاد لا نظير له حتى في سلالة الجان التي عرفها يوماً حتّى أنه لم يندهش أن تخلو أجيال هذه الأمّة من رسل الوصايا، لأن الرجال لا يتعشّقون الخفاء إذا تعشّقوا النساء. وأجيال الأمم كانت قد تعلّمت من قديم الزمان أن الجمال الذي يراه بعض الدهاة قريناً حميماً للحقيقة، يراه فريق آخر عدوّاً لدوداً للحقيقة، في حين حاول فريق ثالث التوفيق بين الفريقين فقال أن الجمال للحقيقة قرين وعدوّ في آنٍ معاً، لأنهما في الأصل وجهان لعملة واحدة يمكن التعبير عن سرّها بالقول أن الجمال ما هو إلاّ تلك الحقيقة التي استظهرت، والحقيقة ما هي إلاّ ذلك الجمال الذي استتر. ولهذا كثيراً ما يعمي الجمال مريدي الحقيقة عندما يستظهر فيتخلّون عن الحقيقة الخافية، ويركضون وراء ظلّها الذي تبدّى. ولا يكتشفون أنهم إنما ضحّوا بالأصل في سبيل الظلّ إلاّ بعد فوات الأوان. وكان على مريد الصحراء أن يحيا التجربة الدموية ذاتها يوم

استسلم لإغواء الحسناء دون أن يعلم أيضاً أنه بهذه الخطيئة إنما يحقّق نبوءة الكاهن عندما تحدّث عن كنز العرفان الذي لا يُنال إلاّ بعبور الدنيا، دون أن يدري أيضاً أنه إنّما يبدأ مسيرة تيه من جنس آخر معزياً نفسه بالقول أنه يفعل ما يفعله الناس جميعاً. وأن يفعله اليوم أفضل من أن يفعله غداً، ناسياً بذلك أن ما يبدو في عُرف الناس عملاً مشروعاً لا بدّ أن ينقلب في ناموس مريد الحقيقة إثماً. لأن الناس يحيون بشرائع الدنيا، ولكن المريد يحيا بشرائع الأبديّة. وكان عليه أن يكتشف أيضاً أن خروجه الذي ظنّ أنه خروج من رحاب الوطن يوماً لم يكن بالقِران، إلاّ خروجاً من الوصيّة التي طوّقه بها الوطن.

15 ـ الخطيئة

«الناس ينقسمون إلى أهل فضيلة يحسبون أنفسهم أهل خطيئة، وأهل خطيئة يحسبون أنفسهم أهل فضيلة».

(باسكال)

يوم رآها في محفل المريدين لأوّل مرّة هتف فيه صوت خفيّ: «هي! هي! إنها هي!». أدرك ساعتها أنه انتظرها. انتظرها دوماً. بل حياته كلها لم تكن إلاّ انتظاراً لها. أدرك أيضاً أن قدمه لم تطأ أرض هذه البلاد إلاّ طلباً لها.

أدرك ذلك بوجدان المسّ لا بإحساس الحسّ. أدرك ذلك بذاكرة القرين الذي يسكنه. بذاكرة القرين الذي يسكن كل مسكون، ولا يعترف بآفة الإنسان الملقّبة في لغة الأجيال بـ«تَنَاوْت»[1]. في حُسْنها قرأ قَدَره. في عينيها رأى ما سوف يكون. رأى ما ينتظره وما ينتظرها. رأى ما ينتظرهما. رأى بوضوح واستنكر. استنكر يقين البلهاء الذين يتشدّقون باستحالة أن يقرأ الإنسان لوح المجهول. استنكر سلالة البهتان التي تدّعي استحالة أن يتنبّأ الإنسان بقَدَره وترى في ذلك عملاً من أعمال الإعجاز. أم أن النفوس التي مسّتها كفّ الخفاء وحدها تستطيع أن تميط الحجاب عن ظلمات الغيب وتقرأ في اللوح الخفي ما استتر عن أعين الأغيار؟ ألم تتحدّث سير الأوّلين عن

---

(1) «تناوت»: النسيان.

الإلهام الذي يصير قرين المسكونين وصحبان المسّ وحدهم دون غيرهم؟ وهل يصير الممسوس ممسوساً، أو المسكون مسكوناً، أو المريد مريداً، أو الشاعر شاعراً، بدون قران مع هذه الأعجوبة التي يسمّيها الدهماء هبةً ويسمّيها الكهنة نبوءةً؟

ولكن الأغرب من كل شيء هو أن النبوءة لم تحمل في عبّها بشارة. لم تومىء بالأحجية التي تطلق عليها الألسن اسم السعادة. ولكنّها لوّحت بإيماء آخر. لوّحت بالخطر. لوّحت بطلسم يوحي بالشقاوة لا السعادة.

فهل تلك كانت إشارة إلى ما يسمى حبّاً، أم إيماء إلى ما ينعته القوم بالقران؟ وهل الحبّ بسليقته وجع؟ هل القران، كل قران، في حقيقته شقوة؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يرى الأغيار يدخلون رحاب هذه الشقوة أفواجاً أفواجاً؟ أم أن من حقّ الأغيار أن يفعلوا ذلك لأنهم أغيار، في حين عليه ألاّ يفعل ما يفعله الأغيار لأنه مخلوق ملفّق من طينة أخرى غير طينتهم؟

لقد تذكّر خطيئته. تذكّر أنه قال لنفسه أن عليه أن يفعل ما يفعله كل الناس فما كان من الخفاء إلاّ أن استجاب له. استجاب لندائه لأنه لم يحدث مرّة أن رفض له الخفاء نداء. لقد كان يلبّي له آماله منذ كان في المهد صبيّاً. ولهذا السبب فليس عليه أن يلوم الخفاء في كل ما حدث وفي كل ما سيحدث، لأن الخفاء في تحقيق آمال دنياه رسول بدل أن يصير هو رسولاً في تنفيذ مشيئة الخفاء. وأيقن لهذا

السبب أيضاً صواب الوصية التي يردّدها دهاة القبائل عندما قالوا أننا ليس علينا أن نلوم أحداً في البلايا التي تنالنا لأننا نحن المذنبون في كل ما جرى وما يجري وما سوف يجري لنا. هذا يعني أن الخفاء الذي يحسبه الكلّ أنه يتخفّى بعيداً عنّا، يتخفّى في الخفاء، إنما يتخفّى فينا وليس في خفائه بعيداً عنّا. نحن في الخفاء والخفاء فينا. نحن رسل الخفاء والخفاء رسولنا. نحن إلى الدنيا رسالة خفاء، والخفاء إلى الأبدية رسالتنا. ما نحن في النهاية إلاّ خفاء، وما الخفاء في النهاية إلاّ نحن: نحن خفاء بما استبطن منّا، والخفاء نحن بما استظهر منه.

زعزعه الجمال حتى استولت عليه رغبة في البكاء، ولكنه لم يسقط مغشيًا عليه كما سقط يوم أبصر حسناء الجنّ لأوّل مرّة. ربّما لأنّ حُسْنها كان حُسْناً من جنس آخر. ولكنه لن ينسى أنه بكى. لم يبكِ فحسب ولكنه عانى من الحمّى الليل كلّه. وعندما التقاها بعد أيام أُخر دعاها لتناول وجبة عشاء. في تلك الأمسية كان عليه أن يتعلّم أن يطلق للسانه العنان لأن أهل الديلم علّموه أن ذلك أول الشروط لغزو قلوب النساء. تحدّث عن كل شيء. تحدّث عن الوطن بصحرائه وقبائله، بسخائه وشحّه، بقساوته وزهده، برحابة صدره وعزلته. ولكنه لم يتحدّث لا عن الحبّ، ولا عن الشّعر، ولا عن السرّ.

لم يفعل لأنه شاء أن يبدو مخلوقاً دنيوياً ككل الخلْق خوفاً من أن تشتمّ الحسناء من حديثه رائحة المسّ. فما كان منها إلاّ أن سألته بعد صمت لم يدم طويلاً عما إذا كانوا في بلادهم يسكنون بيوتاً كبيوتهم فابتسم. ابتسم لأنه سمع هذا السؤال من أفواه أهل البلاد مراراً، فما

كان منه إلاّ أن أجابها قائلاً بأنهم لا يسكنون بيوتاً كبيوتهم، ولكنهم يحملون بيوتهم على ظهورهم ويفرّون بها عبر الخلاء ليحلّوا بها أينما شاءوا، تماماً كما كان يفعل أسلافهم الملقبون في لغة الأجيال باسم: «السكتيين» فتضاحكت واعترفت له بجهلها بهذا الاسم.

بعدها صارا يختليان في البساتين، أو يسيران عبر الدروب المؤدية إلى غابات الصنوبر أو البتولا خارج أبنية المدينة ليشاهدا البرّية التي تتقاطع في أرضها سيوف الثلوج كما تتقاطع سيوف الرمال في خلوات صحراء وطنه الوسطى: تهبّ عليها الرياح الشمالية في فصول الشتاء فتتناثر الحبيبات الثلجية في الفراغ ناسجةً عجاجاً شبيهاً بعجاج الرمال الذي يحوم حول الكثبان الرملية عندما تقتحم قممها الرياح الموسمية.

إلى أن جاء اليوم الذي وجد فيه نفسه مضطرًا لأن يعترف لها باحترافه الأشعار. ولا يعرف لماذا استشعر أشدّ أجناس الخجل بعد الاعتراف. وقد انتابه هذا الإحساس كلّما وجد نفسه يعترف للأغيار باحترافه الأشعار: إحساس من وُجد متلبّساً بارتكاب العار. إحساس من وُجد متلبّساً لا بارتكاب العار، ولكن باقتراف الإثم الذي يفوق العار. فأيّ سرّ في الأشعار؟ أيعقل أن يكون احتراف الأشعار رجس؟ أيعقل أن يكون استجداء الإلهام شرّ؟ أيعقل أن يكون استجلاء الستور انتهاك لحرمة الخفاء؟ أيعقل أن يصير طلب الحقيقة الملقّبة في لغة الأجيال «تيدت» سبباً في الحرج حتّى أنّه كثيراً ما يتصبّب عرقاً من فرط الحياء؟

لقد لاحظ يوم اعترافه أنها لاحظت حرجه أيضاً. لاحظت حرجه فتلألأت مقلتاها بدموع الرحمة. تأملته بفضول قبل أن تضمّ رأسه إلى

صدرها بحنان أمّ تهدهد في حضنها طفلاً. ربّما لأنها أحسّت بإحساس الأنثى الذي ينافس في صوابه النبوءة بأن صاحب الأشعار لا يعود طفلاً كما يعود في تلك اللحظة التي يجازف فيها بالاعتراف. ولا يستحق رحمة الأنثى كما يحتاجها في لحظة اعترافه باقتراف الخطيئة. وكي تبرهن له على أصالة العزاء وجدها تعترف له بأنها تحترف الأشعار أيضاً!

16 ـ الشِّعْر

«حدّثنا ابن بكير عن هشام ابن الكلبي عن خالد بن سعيد عن أبيه قال: رأيت مروان بن الحكم يطوف بالبيت ويقول: اللّهم أَذْهِبْ عنّي الشِّعْر! وأخوه عبد الرحمن يقول: اللّهم إنّي أسألك ما استعاذ منه! فذهب الشّعر عن مروان وقاله عبد الرحمن».

(الأصفهاني)

1 ـ شعر الحلم:

تروي الأجيال أن الشقيّ أصيب بداء غامض (قال البعض أنه الحنين، وقال آخرون أنه السويداء) فأشار عليه أحد الكهنة أن يتداوى بالشّعر، فما كان من المسكين إلاّ أن شدّ الرحال إلى صحراء «مساك مَلَّت» ليعتزل، لأن العزلة (كما أخبره الداهية) أول شروط الشّعر.

مكث هناك، حسب ما يُروى، عاماً كاملاً، وفي رواية أخرى عدّة أعوام، ليعود من هناك بأشعارٍ أثارت سخريّة القوم. فرجمته شاعرات القبيلة بسيل سخيّ من قصائد الهجاء حتى جلّله العار فقرّر أن يتوارى عن الأنظار.

فرّ من ربوع القبيلة إلى «مساك صطفت» هذه المرّة. هناك التقى بعجوز يحيا في كهوف «متخندوش» وحيداً قال أنه من قبائل الرعاة، ولكن رعاة تلك الأنحاء أخبروه أنه لم يكن راعياً في يوم من الأيام، ولن يكونه أبداً لأن العجوز لا ينتمي إلى سلالة الإنس أصلاً، ولكنه سليل جان اعتادوا أن يلتقوه في هذه الخلوات الموحشة ليستضيفهم بمأكولات لم يذوقوا في حياتهم أشهى منها. وتساءلوا للتدليل على

صحّة زعمهم من أين لعجوز بلغ من العمر أرذله يحيا في غيران الوديان وحيداً، بمأكل يعجز حتّى دهاة القوافل عن تدبيره؟

العجوز الخفيّ هو الذي أوصاه أن يجوع حتى يشرف في جوعه على الهلاك إذا شاء أن يقول شعراً حسناً، فقرّر أن العجوز الخفيّ قال له أن الشعر كالعشق سواء بسواء لا بدّ أن يجوع مريده حتّى يشرف في جوعه على الهلاك إذا شاء أن يفوز بالإلهام ويقول شعراً حسناً. فما كان منه إلاّ أن جاع. جاع حتى نسي وجود شيء اسمه الطعام. جاع حتّى كره سيرة المآكل وأصابه مرأى الأغذية بالغثيان. سقط مغشياً عليه مراراً ولكنه لم ييأس ولم يلتقم مأكولاً. لم يهلك في كفاحه أيضاً. لم يهلك ولم يفز بكنز الشعر الحسن أيضاً. فقد تهيّأت له الأشعار التي قالها زمن المجاعة هذه أردأ جنساً من الأشعار التي سبقتها. فما كان منه إلاّ أن تخلّى عن الجوع وذهب لزيارة الجنّ العجوز في وديان «متخندوش». هناك استضافه هذا الداهية بتلك المأكولات الشهية التي اعتاد أن يستضيف بها الرعيان ثم قال له: «ما حاجتك يا شقيّ لقول الشعر؟ ألا تعلم أن الشعر هبة لا تجلب السعادة؟ بل عليك أن تعلم أن الشّعر هو تلك الهبة التي تجلب الشقاء أكثر مما تجلب السعادة. أنت تريد أن تداوي الداء بترياق الشعر ولا تدري أن الدّاء هو الشعر وليس الدّاء!». ثم سكت هذا الكاهن الرهيب سكوتاً طويلاً خاله المريد المسكين غياباً، ولكن الداهية ما لبث أن ألقى له بوصيته الأخيرة: «الحقّ أقول لك: إذا لم تفد العزلة في تحقيق الترياق، وإذا عجز الجوع في تلبية الطلب فما على المريد إلاّ أن يشنق نفسه!». ثم اختفى! التفت المريد فلم يجده إلى جواره.

ويروى أن الشقيّ قرّر أن يعتنق الوصية فذهب ليلقي بنفسه من أعلى قمة جبل في صحراء «مساك صطفت». ولكنه في الطريق إلى هناك شرح صدره قبس الوحي فقال قصيدته الخالدة التي تناقلتها الألسن، وروتها أجيال الأمم، ولا تزال تجري في الأفواه إلى اليوم، والتي صارت أمثولة ومضرَب مثل في حقيقة الهبة (سواء أكانت شعراً أو غير شعر) التي إذا لم نَنلْها بالسليقة تحوّلت في رقبتنا وهقاً ولعنة، لأننا لا نستطيع أن نستجلي سرّها قبل أن تأخذنا إلى سرّها. لا نستطيع أن نفكّ طلسمها إذا لم ننقلب غنيمةً لها. لا نستطيع أن نفوز بها دون أن نصير قرباناً لها!

بعد زمن وجد الرعاة تلك الوصيّة مدوّنة برموز النار على رقعة جلد ملقاة على قمة الجبل فقال الدهماء أن الإنسان لا يفلح في قول قصيدة الحلم إلاّ في اللحظة التي يصير فيها ضحيّة الحلم. ولكن الدهاة ذكّروهم بالدّاء، وقالوا للملأ أن الشقيّ حقّق حلمه لا بقول القصيدة ولكن بالشفاء الأبدي من الدّاء!

2 ـ شعر الثأر:

العرّاف كرّر للقبيلة مراراً: «لا أراكم الخفاء يوماً تقول فيه هذه الجرادة شعراً!». الجرادة كنْيَة لسليل آخر أراد دائماً أن يقول شعراً مثله مثل كل فتيان الصحراء. كان قصير القامة، نحيل البُنْيَة، شاحب البشرة، فلقّبه الأنداد باسم «الجرادة» لهذا السبب. وكان الأقران يتندّرون بعشقه للأشعار ويستفزّونه بالسؤال: «لماذا تريد أن تقول شعراً؟» فيجيب على تساؤلاتهم بالقول: «لأغزو به قلوب العذارى!». وعندما يروق لهم أن يمضوا في الاستخفاف به شوطاً أبعد بالقول:

«وهل الشعر ساحر حتّى يشفع لجرادة عند العذارى؟» فيجيبهم بخبث: «انتظروا وسوف ترون شقيقاتكم في أحضاني يوم تلهمني الأقدار بقول الشعر!».

وقد تحققت هذه النبوءة بالفعل يوم قال الشقيّ الشعر. ذلك أنه أصيب بمرض مفاجىء (قيل أنه صفعة بيد جنّ) فاحترق بالحمّى لياليٍ وأيام حتى فقد الأهل الأمل في شفائه. ولكنه قال الشعر في اليوم الذي هبّ فيه واقفاً على قدميه، فتناقلت الألسن (الظامئة دائماً لترديد الأشعار) أبيات الشعر فتعشّقته الصبايا، ووُجد بعد يومين يعانق إحدى الفتيات في دغل الرتم المجاور للنجوع. وعندما قال قصيدته الثانية تشاجرت فتاة مع فتاة أخرى بالأظافر بسببها، ولم تمضي أيام حتى صار الشقيّ الملقّب بـ«الجرادة» فارس أحلام الصبايا والنساء على حدّ سواء.

وبدل أن يستمتع ببسمة الحظّ ويمضي في قول أشعار العشق التي زعزعت كيان الصبايا قرّر أن يجرّب حظّه في الهجاء فقال قصيدة مشينة في أحد أكابر قبيلة مجاورة قيل بوجود عداء بينه وبين أحد أسلافه، فما كان من القبيلة المجاورة إلاّ أن شنّت على قبيلتهم غارة مباغتة قُتل فيها من قُتل، وأُسر من أُسر، ونُهب من الأنعام ما نُهب. وقد تشاور عقلاء القبيلة في أمر هذه النكبة، وأدهشهم أن تتسبّب قصيدة في حدوث ما حدث.

ولكن أحدهم ذكّر بنبوءة العراف يوم قال: «لا أراكم الخفاء يوماً تقول فيه هذه الجرادة شعراً!» فما كان من الزعيم إلاّ أن أرسل في طلب العراف. وعندما سأله الجمع عن سرّ النبوءة قال بغموض: «لقد

قرأت في عينيه شرًّا!». ذهل المحفل فسأله أقدمهم سنّاً: «ما أكثر الناس الذين نقرأ كل يوم في عيونهم شرًّا، ومع ذلك لم يتسبّبوا في هلاك قبيلتهم». ساعتها حدّق العراف في الفراغ ليقرأ نبوءته في لوح الغيب: «لو عرف العراف سرّ النبوءة لما صار عرّافاً. ولكني أعرف شيئاً واحداً ليس بسرّ على أحد: إذا جرى الشعر على لسان خيّرٍ جلب خيراً، وإذا جرى الشعر على لسان شرّير جلب شرًّا. وصاحبنا سليل شرّ لا سليل خير!». أرسل الزعيم في طلب الشقيّ. وعندما حضر بين يديه سأله في حضرة المجلس: «ما الذي حمّلك على استفزاز الأقوام؟ ألم يكن حريّاً بك أن تلهو بمعابثة الفتيات وقد مَنَّ عليك الخفاء بنعمة بخلت بها على الأغيار بدل أن ترجم فرسان القبائل بأشعار أنت تعلم أنها أوجع وقعاً من الرمي بالحراب؟ ألم يكن أجدى لك ولنا وللقبيلة، بل وللصحراء كلّها، أن تقول ملحمةً تخلّد بها ذكرك إذا كنت قد مللت التشبّب بالصبايا قبل أن تبدأ؟». سكت الزعيم فانتظر العقلاء أن ينحني الشقيّ أمام المجلس ويطلب الغفران، ولكنه انتصب برأسه في استكبار ليقول المنكر: «ألا يعلم مولانا أنّي لم أحلم بقول الشّعر لأتشبّب بالحسان، ولكني أردت قول الشعر لأنتقم؟ ألا يعلم مولانا أن البلهاء وحدهم يقولون الأشعار ليتعشقوا، ولكن الرجال لا يجب أن يقولوا الشعر إلاّ لينتقموا؟!». همهم الأكابر بالعجب، وصرخ الزعيم بالاستنكار: «ماذا تقول أيها الشقيّ؟ هل جئتنا كي تقول لنا قولاً لم نسمعه من فم الناموس الضائع «آنهي»، ولم نرثه في سير أسلافنا عبر أجيال وأجيال؟». ولكن «الجرادة» لم تتنازل عن استعلائها. «الجرادة» استكبرت وتشبثت بوصيّتها: «لم أنتقم لنفسي، ولكني انتقمت لشرف القبيلة كلّها. انتقمت لكم من ذوي سلطان

أذلّوكم يوماً، وأهانوا سلفكم الذين هم سلفي، فرجمتهم بالحربة التي ستبقى مغروسة في صدورهم إلى الأبد. جراحنا سوف تندمل، وأمواتنا سوف يحيون في أشعاري، ولكن العار الذي ألصقته بقبيلة الأعادي بقولي لن تمحوه الأيام ولا الأعوام، لأن الأجيال سوف تردّده كما تردّد الملاحم التي قال مولاي أني لم أقلها!». تزلزل المجلس بالجدل. البعض استحسن، والبعض الآخر استنكر. ولكن الشاعر هبّ ليقول وصيته الأخيرة قبل أن يمضي: «أعرف أنكم ستقضون عليّ بقصاص المنفى. وأعرف أيضاً أنكم سوف ترسلون ورائي من يقلتني غيلةً لأني سأبقى شوكة في ظهر أعدائي بأشعاري. ولكن عزائي أني سأحيا في أشعاري!».

خرج الشاعر إلى المنفى بعد ذلك اليوم، ولكنه لم يتوقّف عن قول أشعاره المميتة التي استفزّت القبيلة المعادية فشنّت غارة أخرى على ربوع القبيلة. بعدها اضطرّ الزعيم أن يبعث خلفه برسول فأسكته إلى الأبد.

سكت الشاعر، ولكن أشعاره مضت تتكلّم!

3 ـ شعر الخطر:

تروي السِّيَر أنها كانت امرأةً ناريةً تشتعل في قلبها الشهوة إلى الأشعار كما تشتعل في جسدها الشهوة إلى الرجال. وبرغم أنها لم تقل في حياتها بيتاً واحداً من الشعر إلاّ أنها هي التي روّجت بين نساء القبيلة وصيّةً تقول: «الرجل بلا شعر كالمرأة بلا فتنة!». وعندما كانت النساء يداعبنها بالسؤال لماذا لا تقول الأشعار إذا كان هوسها بالشعر

لا يُجارى فكانت تجيب بالقول أن الشعر لم يكن يوماً هبة النساء، لأن شعرهن جمال الجسد وجمال الرجل في الشَّعْر. والخفاء لا يهب شيئاً نفيساً لمخلوق واحد مرّتين. واعترفت أنها حاولت أن تقول شعراً ولكنها كانت تبكي بكاء مريراً في كل مرّة لأن النتيجة لم تكن مضحكة فحسب، ولكنها موجعة أيضاً. في النهاية سلّمت بأن الشعر معجزة لم تُخلق للنساء، وبرهانها على ذلك أشعار نساء القبيلة الخالية من الشعر خلوّ طعام الجنّ من الملح! وقالت أيضاً أن المرأة ربّما أتقنت الغناء، ولكن عليها أن تتخلّى عن الشعر وتتفرّغ للعشق. ثم لم تستح أن تعلن على الملأ أنها لن تقترن برجل لا تعترف له القبائل بإتقان الأشعار. وكان عليها أن تنتظر طويلاً وتتسقّط أنباء فرسان القبائل المجاورة، بل وأنباء رجال القبائل الأبعد، حتّى تفوز بالحلم أخيراً: قيل إنه رجل قصير القامة، غليظ الأنف، يميل إلى البدانة، ولكن أشعاره كانت أكبر شفاعة له على قبح الخلقة. فما كان منها إلاّ أن اتخذته حميماً بلا تردّد.

ولكن المسكين ما لبث أن أصيب بعلّة غامضة فقد على أثرها القدرة على قول الشّعر. انتظرت أن يعود إليه صوابه زمناً، ولكن حال المسكين ازداد سوءاً على سوء ففارقته بلا رحمة وأشاعت بين نساء القبيلة نبأ يقول أنه عنّين. أمّا هو فعاد إلى ربوع قبيلته واقترن هناك بامرأة أنجب منها ابناً ممّا أدهش النساء ودفعهن لمساءلة قرينتهنّ عن سرّ مزحتها. فثارت في وجوههن واتهمتهنّ بالجهل ونسيان لسان الناموس الذي لم يعترف يوماً بغير الاستعارة لغةً. ثم أوضحت لهنّ أنها أومأت إلى موت الشعر في قلب رجلها يوم قالت أنه عنّين، لأن

رجولة الرجل في قول الشعر وليس في الاشتباك مع المرأة في المخدع!

مضت تبحث عن شاعر حلمها زمناً آخر، وبرغم أن الزمان مارد معادٍ لملّة النساء قبل الرجال إلاّ أنها لم تيأس أبداً. إلى أن جاء اليوم الذي جاء لها بالبشارة.

فقد ذاع صيت شاعر من قبيلة تسكن وطن «آهجّار» في أقصى الغرب، ولكنه يعود بأصوله من ناحية الأم إلى قبائل «آزجر» التي تنتمي إليها هي أيضاً، فرأت في هذه الخرافة فأل خير. ردّدت أشعاره بينها وبين نفسها، ثم تأمّلتها مليًا قبل أن تعترف له بالعشق في رقعة جلد بعثت بها إليه مع قافلة متجهة إلى «تامنغست».

لم تنتظر بعدها طويلاً. فقد أقبل عليها المعشوق في عشيّة أحد الأيام ليقترن بها بعد أيّام أُخر. ويُروى أنها عاشت معه أجمل أيام حياتها. ولمّا كانت السعادة دائماً أقصر عمراً من قرينها اللدود الهمّ فقد انقشع الحلم في أحد الأيام ليحتلّ مكانه الهمّ. ذلك أن المسكينة اكتشفت فجأة أن حميمها الذي ظنّته فارس الشعر في الصحراء كلّها (لأن أشعاره لم تسمع القبائل مثيلاً لها إلاّ في ملاحم الأوّلين) كان شاعراً مزيّفاً ينتحل أشعاره من الشعراء الأقدمين وينسبها لنفسه، ولم يحدث أن قال في حياته الشقيّة كلّها بيتاً واحداً من الشعر!

الصدمة طرحت القرينة المسكينة في فراش المرض زمناً امتدّ لأسابيع. وعندما تماثلت للشفاء لم تهتد لحيلة تغسل بها العار الذي ألحقه بها شاعر الزور فاجتنبت لقاء القرينات، وهامت في الخلوات

المجاورة متظاهرةً بالبحث عن الكمأ حيناً، وبرعي الأنعام حيناً آخر. ولم تعد إلى نجوع القبيلة إلاّ في اليوم الذي اكتشفت فيه أنها تحبّه، برغم الزور، ولا تستطيع أن تهجرَه كما هجرت رجلها العنّين الذي مات الشعر في قلبه. أدهشها الاكتشاف لأنها لم تحسب أنها قادرة على أن تعشق رجلاً لا يشتعل الشعر في قلبه. جاهدت في البحث عن العلّة، وقالت لنفسها أنه رجل شاعر حتّى لو ردّد شعراً منحولاً. رجل شاعر بالفعل لا بالقول. ساعتها اقتنعت أن الشعر جنسان: شعر باللسان، وشعر بالفعل. ورجلها شاعر من الجنس الأخير. فلماذا لا تغضّ البصر عن دعابته وتهنأ في أحضانه بشعر المسلك لا شعر القول؟

ولكن.. ولكن الخدعة أكذوبة، والأكذوبة في عرف الناموس عار لا يمحوه إلاّ الثأر. وهي لا بدّ أن تثأر كي تستطيع أن تنظر في عيون قريناتها، وكي تتلذّذ بمحادثة رجال قبيلتها. لا بدّ أن تغسل العار إذا شاءت أن تحيا. لأن الناس إذا جاوروا الناس فليس لهم أن يحيوا بناموسهم هم، ولكنّهم يحيون بناموس الناس. والناس لا تغفر العار، ولا تعترف بجوار إنسان تجاسر فاستهان بعرف الأغيار.

عادت إلى الربوع بقلب يفيض بحبّ شاعرها المزوّر، ولكنه ينزف بالعار الذي ألحقه بها شاعرها المزوّر.

ليلتها لم تنم. لم تنم ليلتين، بل ثلاثاً، إلى أن ألهمها طول السّهر أمراً رأت فيه نبوءةً. أخرجت من صرة في خبائها مرهماً خفيّاً. نثرته في وعاء الحليب وانتظرت. أقبل القرين فناولته الوعاء. احتسى القرين الحليب حتى ارتوى. ثم أعاد لها الوعاء ملآناً إلى منتصفه قبل

أن يهجع لينام. جلست فوق رأسه في وجوم المأتم. تحدّق نحوه ببصرها عبر عتمة مساء ينيره قمر شاحب. قبعت فوقه في لحاف السواد كأنها ساحرة تستخرج من القبر جثة ميّت دفن للتوّ لتستخدمها في عقاقيرها الفظيعة.

تابعت صدره يعلو ويهبط. أنفاسه تتلاحق فجأة، ثم تعود فتنتظم ثانية. ها هو يشهق، يجاهد لالتقاط الأنفاس. ثم وهو يتخبّط كضبّ ذبيح. ثم وهو يهدأ، يهدأ، يهدأ حتى انقطع آخر الأنفاس فهمد. همد إلى الأبد. لحظتها فقط مدّت يدها إلى الوعاء وبدأت تتجرّع الحليب. تجرّعت بهدوء، بيقين، بلذّة. توقفت لتستمتع بمذاق الحليب، بمذاق العقار الرهيب المدسوس في سائل الحليب. تمطّت بلسانها لتستجلي الطعم. ثم عادت تشرب في جرعات كبيرة، متلاحقة، نهمة.

انتهت أخيراً فألقت بالوعاء جانباً. رنت إلى الخلاء المغمور بألق القمر الشاحب كأنها تلقي على معشوقتها الصحراء آخر نظرة. ثم زحفت لتتمدّد في المخدع إلى جوار القرين.

في صباح اليوم التالي وجدوهما ممدّدين في المخدع، ملتحمين في عناق حميم، حتّى أن أشدّ الرجال في القبيلة وجدوا عسراً في عزل الجسدين عن بعضهما.

17 ـ الحريّة

«الإنسان الوحيد الحرّ هو الإنسان الذي ضحّى بكل شيء من أجل شيء يستحقّ الإنسان أن يحيا من أجله».

(ريمارك)

لم يذهب في طلب الوصيّة إلاّ بعد أن طفح به الكيل.

لم يلتجىء إلى كهّان الديلم، ولكنه تسكّع في أسواق «وكسوم» المزدحمة بشتّى الملل والأجناس. يقرأ في الوجوه سيماء أهل الأوطان الهاجعة وراء البحور، ولم ييأس إلى أن اهتدى إلى أحد كهنة البُعْد فساءله عن حقيقة النساء. قال له: «ما رأي مولانا في قرانِ غريبِ بسليلةِ غرباء؟» فأجابه في الحال: «شِعْر في شِعْر!»، فاستفهم: «هل يريد مولانا أن يقول أنه يذبل كما يذبل الزهر، أو ينقشع كما ينقشع الغمام؟». فأجاب: «أحسنت! وإذا لم يذبل ذبول الزهر أو ينقشع كما ينقشع الغمام فإنه ينقلب طعنة في القلب!».

سكت. دعاه للتمشّي عبر دربٍ يقود في نهايته إلى غابة البتولا، فانطلقا. تساءل بعد مسافة: «وماذا يفعل سليل الأغراب مع قرينة لا يستطيع أن يحيا إلى جوارها، ولا يستطيع أن يحيا بعيداً عنها أيضاً؟». أجاب داهية ما وراء البحور على الفور: «يقتلها!». هتف باستعجاب: «يقتلها؟»، فأعاد الكاهن العبارة بلا تردّد، فسكت زمناً قبل أن يتساءل: «وإذا لم يقتلها؟». قال الداهية بنبرة اللامبالاة ذاتها: «إذا لم يقتلها قتلته!» فحدجه باستنكار ولكنه لم ينبس. قطعا مسافة أخرى.

تساءل باستحياء: «ولكن كيف يقتلها إذا كان يحبّها؟ وكيف تقتله إذا كانت تحبّه؟». فأجاب داهية الأغراب بلا إبطاء: «لا يقتل العاشق معشوقةً إلاّ إذا كان يحبّها، ولا تقتل العاشقة معشوقاً إلاّ إذا كانت تحبّه!». نزلا جرفاً. في الجرف انقطع الدرب وتنامى عشب كثيف. تساءل: «ولكن لماذا لا نستطيع أن نحيا إلى جوار من نحبّ؟ لماذا لا نستطيع أن نحيا بعيداً عمّن نحبّ؟»، فأجابه سليل الجنّ الذي يدبّ إلى جواره بلسان من يقرأ أجوبته في رقعة أو قرطاس: «لا نستطيع أن نحيا إلى جوار من نحبّ لأننا نفرّ من شرّ اسمه الملكيّة، ولا نستطيع أن نحيا بعيداً عمّن نحبّ لأننا نفرّ من شرّ آخر اسمه الحريّة!». استنكر رغماً عنه مرّة أخرى: «وهل يرى مولاي أن الحرية شرّ؟». فأجاب الرفيق بلا تردّد: «وهل في دنيانا شرٌّ أشرّ من الحريّة؟ أم أنّك ممن يحسنون الظنّ بما يقوله من يسمّون أنفسهم عقلاء؟».

في مدخل الغابة اشتبكت أحراش. من الأحراش فزّ قندس وتسلّق ساق شجرة صنوبر عالية. عاد رسول أوطان الأغراب إلى القول: «البلهاء وحدهم رأوا في الحريّة خلاصاً، ولكن دهاة القبائل تجنّبوا هذا الفخ دائماً فعاشوا الحياة كما يحياها كل الناس. هلاكك رهين باليوم الذي تصاب فيه بداء الحريّة، فاحترس!». احتجّ بصوت كالهمس: «الحقّ أنّي لم أرَ يوماً ما يرى مولاي، ولكن سؤالي هو: ماذا يعني رباط شاعر بشاعرة؟». أجاب الداهية ببرود: «جنون في جنون!»، فهتف بلا إرادة: «ماذا يقول مولاي؟». ولكن الداهية اكتفى بالقول: «لم أقل إلاّ ما سمعت!». سكتا. دخلا دغل البتولا. في الأعالي تغنّى الطير. في الأسافل صرصر الجندب. تساءل: «ما

العمل؟»، فسمع الجواب الذي لم ينتظره: «الخروج!». تساءل بيأس: «إلى أين؟»، ولكنه بدل أن يسمع جواباً سمع سؤالاً: «ما الذي يدفع الإنسان لأن يغترب؟». أجابه: «خرجت طلباً للعرفان!».

قال الكاهن: «وما حاجة الإنسان إلى العرفان؟» فأجاب بيقين هذه المرّة: «لأن العرفان يا مولاي سر لا نستطيع بدونه أن ننال الحقيقة الملقّبة في لسان الأجيال باسم «تيدت»!». فهتف الداهية بأعلى صوت: «الويل لك، ثم الويل لك!». توقّف عن الخطو. توقّف الداهية أيضاً. حدّق فيه بعينين صارمتين قبل أن يقول: «ألم تعلم يا سليل الأشقياء أن طلب الحقيقة الملقّبة في لسان الناموس باسم: «تيدت» مغامرة لا تختلف عن الخروج في طلب أحجية الخطر الملقبة في لسان الناموس باسم «الحرية»؟». سكتا زمناً. أطلق كلّ منهما في وجه الآخر أنفاساً كفحيح الأفاعي. اعترف له أخيراً: «ذلك يا مولاي لم يكن خياري. لقد طوّق الخفاء عنقي بهذه الوصيّة منذ كنت في المهد صبيًّا، ولا أحسب أني سأتحرّر منها حتى لو بلغت من العمر عتيًّا!». في نظرة الكاهن تبدّى اللّين. قال قبل أن يضع قدمه على الدرب: «ويل لمن طوّقته الخافية بوصيّة!». سكت ثم أضاف في الحال: «من طوّقته الخافية بالوصيّة صار قرباناً للوصيّة!».

في شعفة شجرة البتولا وَفَوْق الصّرد!

18 ـ امرأة اسمها الدّنيا

«من التقته الدنيا وهو مقبل عليها ـ قتلته.
ومن أدركته الدنيا وهو مدبر عنها ـ جرحته!».

(البَصْرِي)

«أمرّ من الموت المرأة التي هي شِباكٌ، وقلبها أشراكٌ، ويداها قيودٌ».

(الجامعة 6:7)

ارتاد معها حلقات سمر تلا فيها شعراء الملل وشاعراتها أشعاراً، وارتاد حلقات أخرى، قبل أن يعرفها، يجتمع فيها الرجال والنساء ليتسامروا ويتجادلوا ويتلهّوا حول مآدب سخيّةٍ بأشربةٍ شبيهةٍ بجنونٍ أوّله انتشاء ونهايته داء!

لم يدرك، بهذه الرحلة، أنه يخرج من قمقم عزلته الخالدة وينزل ساحة الدنيا من أوسع الأبواب إلاّ بعد انقضاء أمد طويل. كما لم يلحظ خلال هبوطه هذا غياب حميمه الخالد الذي رافقه منذ عرف، بل وقبل أن يعرف، وراق له أن يطلق عليه اسم «كاهن الأجيال المقنّع برقعة الجلد». لم يغب كاهن الأجيال من حياته فحسب، ولم ينس وصاياه فحسب، ولكنه نسي أنه وُجد أصلاً في دنياه يوماً، وكان عليه أن يغرق في دهاليز دنياه الجديدة أكثر وأكثر كي يدرك يوماً أن اغتراب صاحب الوصايا ليس تخلياً عن الوصايا، وتجاهل الوصايا ليس استهانة برسالة المريد، لأن الخليقة لا تستشعر الحنين لصعود قمم الجبال إذا لم تنل منها أحاضيض الأسافل وأوحال القيعان. وهو لن ينكر في يوم من الأيام أنه تجرّع درساً نافعاً في كل جرعة من جرعات الجنون التي طفح بها كأس الدهليز لتتحوّل جرعة أوّلها شفاء ونهايتها داء إلى جرعة أوّلها داء، ولكن نهايتها شفاء!

والأخطر من غياب الدّليل في رحلة الدهليز هو غياب الشهوة إلى الحقيقة الملقّبة في لسان الأجيال باسم «تيدت». لم يكتشف التّيه الجديد في الحال (لأنه كان سيستيقظ من غيبوبته في هذه الحال) ولكنه وجد نفسه مسربلاً بالغمر فاستسلم. استسلم للسيل فجرفه التيّار في سبيله المجهول. قال لنفسه يوم اتخذ لنفسه المرأة قرينةً أنه سوف يستدرجها إلى رحاب دنياه لتعتنق ناموس حقيقة ليست من هذه الدنيا، ولكنها استدرجته هي إلى دنياها بدل أن يستدرجها هو إلى دنياه، وألهته هي عن حقيقته بدل أن يلهيها هو عن حقيقتها، فأيقن بعد أعوام أن سرّ المرأة ليس في الإغواء. سرّ المرأة ليس في فتنة الجمال الذي يُرى، ولكن لغزها الأدهى في الفتنة التي لا تُرى. لأن الفتنة التي تُرى تتبدّد بتبدّد الشهوة، ولكن فتنتها الخفيّة، فتنتها التي لا تُرى هي السلطان الذي لا سلطان للرجل عليه، بل ولا سلطان لجانٍ عليه. لأن هذا السرّ أعجوبة تعجز المرأة نفسها عن إدراك حقيقتها. لأن هذه الفتنة (الغامضة غموض الخفاء نفسه) أحجية تجهلها المرأة نفسها في نفسها. وإلاّ لما كانت في يد هذه الملّة أشرس سلاح للفتك بأعدائها وبأصدقائها على السواء إلى حدّ ضلّل الخليقة عبر أجيال وأجيال لتسير وراءها. تسير وراءها مسلوبة الإرادة لتكبرها، وتقدّم لها قرابين الولاء، لتعبدها. بلى، بلى. لقد اتخذت الأمم من هذا المخلوق ربًّا منذ بداية الخليقة لتقدّم نفسها لها قرباناً على المذبح. بلى. نحرت أمم الخليقة نفسها قرباناً للمرأة لأن أمّة ضحّت بالحقيقة الملقبة في لسان الناموس باسم «تيدت» نزولاً عند هوى المرأة، ليست سوى أمّة أضحية. أمّة فداء. أمّة لم تفقد بهذا القربان هويّتها فحسب، ولكنها أضاعت روحها. ربّما لأن المرأة كوعاء آوى في جوفه أعجوبة الروح وهدهدها وأطعمها من جوع وآمنها

من خوف هو ما ضلّل الأجيال وبلبل القبائل فنصّبتها في عباداتها ربّةً ظنًّا منها أن الوعاء الحاوي لمعجزة الروح ليس وعاء ولكنه هو الروح. أي أنها سجدت للهيكل وتجاهلت الربّ الذي يتوارى وراء الهيكل. عبدت الأعجوبة في الوعاء وغابت عنها حقيقة الأعجوبة المتستّرة وراء الوعاء. خرّت تسجد للظلّ ونسيت الأصل الذي تخفيه ظلال الظلّ.

هذه الجهالة هي التي ضلّلت القبائل وأضاعت أجيال الأمم فعبدت الأنصاب بدل الأرباب كما ركعت لملّة المرأة وانقادت لها بدل أن تركع للسرّ الذي تحمله المرأة في جوفها. وهو سرّ من طينة فريدة لأنه يهب الوعاء الذي يحويه من سليقته نصيباً فتنطلي سيماءه على الوعاء الذي يحمله ليصير في بصر الناس سليقةً ثانيةً فيستحكم نسيج المكيدة. لهذا السبب صارت الأجيال كلّها ضحيّة لهذه المكيدة. ولهذا السبب أيضاً صار إنكار ربوبية المرأة حجر زاوية في عقائد كل الأبطال الذين أخذوا على عاتقهم تصحيح الأمر وإعادة الروح الضائعة إلى أعجوبة الروح في ثورات النّساك وانتفاضات العُبّاد التي عرفها ناموس الأجيال في مسيرته الطويلة. ولهذا السبب أيضاً انقلب العداء بين المرأة وبين كل من زهد في تلقّي هبات المرأة عداء مستحكماً بلا دواء، لأن المرأة بسليقتها (كسلطان نصّبته الخليقة على دنيا الباديات ربّا) لا ترى في مريد الحقيقة عدوًّا فحسب، ولكنها ترى في مجرّد وجوده على قيد الحياة لا خطراً على سلطانها وحسب، ولكن خطراً على حياتها أيضاً.

ولهذا تحتكم إلى فتنتها التي لا تُرى، فتنتها المستعارة من سرّها الكامن في جوفها، من كنزها الذي تحمله ولكنها لا تعتنقه، تماماً كما

تحمل الدّابة رقع أسفارٍ على ظهرها ولكنها تجهل حقيقتها. ولو حدثت معجزة وعلمت من متونها نذراً ولو يسيراً لانقلبت من دابّة تدبّ على أربع إلى مخلوق يدبّ على قدمين!

ولكن الدابة التي تدب على أربع لن تنقلب مخلوقاً يدب على قدمين لا لأن حدوث العجائب في دنيانا أندر، ولكن لأن المخلوقات أسعد بجهلها ولا تريد أن تعترف بحقيقة غير حقيقتها. وكما ترفض الدّابة أن تتحوّل من دابّة تدب على أربع إلى مخلوق يدبّ على قدمين لو خُيّرت، كذلك ترفض المرأة حقيقة أخرى غير حقيقتها، لأنها مثلها في ذلك مثل الدّابة الشقية سوف ترفض بذلك سليقتها. سوف تنكر بذلك طبيعتها التي لا تعرف لنفسها طبيعة سواها. ولهذا فإن استماتة المرأة في محاربة أهل القداسة ليس دفاعاً عن أهواء، ليس دفاعاً عن أملاك ورثتها عن أسلافها، ليس دفاعاً عن وطن تستطيع أن تستبدله بالسعي في أرض الخفاء الواسعة، ولكن استبسالها دفاع عن سليقة أصيلة في نفسها لا تملك لتبديلها حيلةً. دفاع عن قدر وُلد معها، وسرى في دمها، وتغلغل في روحها الخالية من الروح. ولهذا فإن المرأة تستشرس في مقاتلة أعداء فتنتها بضروب بطولة لا مثيل لها لأن الصراع ليس صراع نصر أو غلبة، ولكنه عراك الدفاع عن النفس، عراك حياة أو موت. ولو لم يكن الأمر كذلك لما هُزم كلّ من سوّلت له نفسه أن يتخذ من فتنة المرأة خصماً بأبشع هزيمة. انهزم بيد المرأة الدهاة، انهزم الطغاة، انهزم صحبان الناموس وعُبّاد التخلّي. انهزم أمام هذا السلطان الجائر أخيار الرسل وعشّاق الحقيقة وحتّى الذين حصّنت يمينهم النبوءة. فكيف توهّم أنه يستطيع أن ينجو من القصاص. ويخرج من ساحة دنياها المسكونة بلا جراح؟

19 ـ الهاوية

«لن نعدم في أعمق أعماق أيّ هاوية أن نعثر على الدرب الذي يقود إلى أعلى قمّة».

(كولتون)

ما أدهشه هو أنه بقرانه معها اكتشف أنه اكتشف المرأة لأوّل مرّة. اكتشف أنه لم يعرف المرأة في يوم من الأيام. كأنه لم يعرف نساء الصحراء ولم يعشق الجنيّة يوماً. اكتشف بقرانه مع امرأة الأغراب أن علة شقوته معها ليست في جهلها بما تريد ولكن في استكبارها الذي يمنعها من أن تعترف بأنها لا تعرف ماذا تريد. لأن ما ينعته دهاة الصحراء باسم الحياء الكاذب هو الذي يمنعها من أن تعترف لنفسها لا للأغيار بأنها تريد الاستيلاء على الرجل كلّه لأنها، مثل كل الأرباب، ترفض أن تشرك بنفسها أحداً سواء أكان رجلاً خلاً أو امرأة خليلة، سواء أكان مثالاً يناجيه في أشعاره، أم جمالاً يتبدّى له في مياه بحيرة. بلى. لقد نازعته في كل رمز وهبه نصيباً من قلبه سواء أأستظهر الرمز أم استخفى، ولم تستح من أن تقول له أن الحبّ هو أن يهب الإنسان نفسه للحبيب كلّه. وعندما تساءل عن مصير الأشعار فاجأته بالقول أن الشعر هو الحبّ، وعليه أن يصير منذ اليوم شعر دنياها كما صيّرت نفسها منذ القران شعراً في دنياه. ولكنه عاند فقال أن الشعر قدره فقالت أن قدر الرجل المرأة لا الشعر، لأن الشعر حميم الشقاء، ولكن في أحضان المرأة تنام سعادة الرجل.

ويوم فقد صوابه واتّهمها بأنها مخلوق لا يعرف ماذا يريد، ولا يعرف نفسه، سخرت منه بمرارة قائلة: «وهل في دنيانا كلّها مخلوق واحد يعرف ماذا يريد؟ هل في دنيانا كلها مخلوق واحد يعرف نفسه؟». بعدها قالت الحقيقة. بعدها حدّثته عن سجيّتها فقالت أن الرجل يريد من المرأة الجسد، ولكن المرأة تريد من الرجل الروح، لا لأنها مخلوق بلا روح كما يدّعي أهل التخلّي البلهاء، ولكن لأن روح الرجل هو السليل، هو الابن، هو الوصيّة التي يستودعها الرجل في بطن المرأة ليصير في جوفها فاكهة فتنة. فإذا كان الحنين هو شعر الرجال، فإن الذريّة هي شعر المرأة. فما كان منه يومها إلاّ أن حدّثها عن حقيقته أيضاً.

حدّثها عن الحقيقة التي ترفض أن تشرك بها أحداً. حدّثها عن الحريّة التي لا تعترف بالملكيّة وترى في كل علاقة كابوساً لا بدّ أن ينجلي. حدّثها طويلاً لأنه قرّر أن يتحرّر. قرّر أن يفرّ. قرّر أن يتحوّل إلى أرضٍ جديدة تجاور وطن الديلم من جهة الغرب، علّ حديثه يكون لها بمثابة رسالة الوداع. ولم يعلم أن نوايا الرجل على المرأة لا تخفى. لم يعلم أن النوايا في حضرة المرأة خطيئة لا تُغتفر. لا لأن نوايا الرجل على المرأة لا تخفى ولكن لأن الوسوسة التي تأتي للمرأة بالنبأ هي التي تلهم المرأة بأن تبيّت نيّة أخرى مضادّة لنيّة الرجل تستطيع أن تدافع بها عن نفسها.

يومها أيضاً خمّنت هذه الجنيّة نواياه فدبرت أمرها في غفلةٍ منه. اختلست من صلبه سرّه وأخفته في جوفها ليكون لها في دنياها شعراً. اختطفت من روحه جنيناً ليقينها بأن المرأة التي لا تستطيع أن تحتفظ

برجلها بسلطان جسدها، لا يبقى لها إلاّ أن تحاول أن تمتلكه بسلطان جنينها.

ولم يكن له أن يدرك المكيدة إلاّ بعد أن فرّ إلى بلاد الصقالبة (ليلج هناك دهليزاً أشدّ ظلمة من دهليز وطن الدّيلم) ليفاجأ بها وقد لاحقته إلى هناك بمرور الأيام حاملةً بيمينها تميمةً ملفوفةً في قماط المهد!

لم يجد بدًّا من أن يحاول أن يحيا حياة الناس مرّة أخرى. حاول أن يتخلّى عن وصيّة سَرَت في روحه سريان الدّم في البدن ويحيا حياة الكلّ. حاول أن يخون قَدَره وينتزع من قلبه المسّ، ولكن السجيّة خذلته.

أخفق في أن يحيا إلى جوارها حياة الكلّ فبحث عن العزاء بالفرار. أوجعته بإصرارها على امتلاكه، وأذته بشراسة المزاج، وأصابته بجراح لسان إنسان يريد أن يفعل ولكنه يجهل ما يريد أن يفعل، ففرّ. فرّ إلى أحضان نساء الصقالبة الفاتنات. فرّ إلى أحضان الأفيون الملفّق من جروم اللّحم والدّم. فرّ إلى خلايا الخلاّن الذين لم يجد فيهم يوماً حظوة لأنهم كانوا له دوماً ملّة زور، ربّما لأنهم كرجال لا يجودون بثقتهم لرجالٍ يحملون في صدورهم وصيّة. لأن رجل البهتان بطبيعته عدوّ لدود لرجل الوصيّة. ولهذا فإن رجال الوصايا الذين لم يجدوا في صدور النساء عزاء، لن يكتب لهم أن يجدوا العزاء في مكانٍ تحت قبّة السماء!

فرّ، وفرّ، وفرّ. ولكن مأساته أنه لم يفرّ إلى ملاذه طوال رحلة

فراره. لم يفرّ إلى حقيقته طوال شقوته. لم يفرّ إلى ساحة العرفان ولا إلى رحاب التخلّي. بل تخلّى عن العرفان الذي لم يركب سفين الغربة إلاّ لنيله، بدل أن يتخلّى عن الدنيا التي لا تهب عطاياها إلاّ لتنال من نال عطاياها.

لقد اغترب في هذه الغيبوبة حتّى عن طبيعة الرّبّ التي عشقها في صحرائه الكبرى كما لم يعشق شيئاً. اغترب عن معبودته دون أن يدري. اختلسته الدنيا من معبودته الأولى احتيالاً: تارةً بيد الحسان، وتارةً بيد الخلاّن، وتارةً بيد الوساوس، وتارةً بمطاردة الأشياء التي لا تغني ولا تُنال مهما ظنّنا أنّا نلناها. فكان يبكي على فراقها بلا حياء. بكى على فراق طبيعة الأرباب لأنه رأى فيها الوطن، ورأى فيها أهل الوطن، ورأى فيها رسالة الوطن، ورأى فيها رب أرباب الوطن. بكى حزناً على فراقها دائماً ليقينه بأن الدموع التي نسفحها على فراق طبيعة الربّ هي الدموع الوحيدة التي لا يجب أن نستحي منها، بل الدموع الوحيدة التي نستطيع أن نتباهى بها أمام الملأ. كان يتطلّع إلى ندوف الثلوج وهي تتساقط وتكتسح الأرض لتبدع في سهول الشمال الخضراء صحراء عاريةً شديدة الشبه بصحرائه الكبرى، فتستولي عليه الحمّى وتضيق به الأرض.

ولكن الدنيا حجبت عنه الأرض، وحرمته حتّى التطلّع إلى غزوات الريح المحمّلة بحبّات الثلوج، لأنها تدري أنها لن تستطيع أن تحتفظ بالسليل أسيراً إذا لم تصبه بالعماء (عماء البصيرة قبل عماء البصر) حتّى لا يرى إذا رأى، ولا يدرك إذا وعى، ولا يبالي إذا ابتلى.

تخلّى عن زياراته النادرة إلى غابات البتولا، وقلّل من الخروج إلى السهول المفروشة بالعشب صيفاً، وبالستور الثلجية الناصعة كأنها الأكفان في فصول الشتاء، حتى انقطعت تماماً، فانقطعت بانقطاعها الصلة بطبيعة الربّ.

بانقطاع الصلة اشتدّ الدّاء وتضاعفت في القلب أوجاع العزلة. عزلة من جنس فريد اختلف عن جنس العزلة التي عرفها في الصحراء. لأن عزلة الصحراء عزلة الطبيعة، ولكن عزلة الدنيا كانت عزلة أمرّ لأنها عزلة الناس لا عزلة ربّ الناس. عزلة الصحراء أرحم لأنها قصاص الربّ الذي يحيي، وعزلة الدنيا أشرّ لأنها قصاص الناس الذي يميت.

وعزلته بين الناس كان بالإمكان أن تُحتمل لو لم يفقد التميمة. لو لم يفقد الوصيّة، لو لم يفقد دليل الأجيال، لو لم يفقد الشهوة إلى العرفان، لو لم يفقد حنينه القديم إلى الحقيقة الملقبة في لسان الناموس باسم «تيدت».

الآن فحسب أيقن أنه وحيد. الآن فقط أيقن أنه غريب. الآن فقط أيقن أن لا شيء يمكن أن يعني أي شيء. الآن فقط أدرك أن ما يعانيه ليس يأساً، ولكنه هبوط إلى تلك الهاوية التي تروي الأجيال في السِّيَر الأولى أن المريد لا يفلح إن لم يعبرها، برغم أن أقل القلّة هي التي تنجو عادة من بطشها.

خشي أن تنقلب أوجاعه لا مبالاة فغنّى. حاول أن يوقف النزيف بالغناء، ولكن هيهات!

اللّحن تحوّل في الحلقوم غصّة، والشجن في القلب انقلب نزيفاً، واللسان في الفم تلجلج، وشرر الإلهام في الوجدان غاب، فأعجزته المرثية. أعجزته المرثية فاندفع ليفرّ كأنه لا يفرّ من الأرض ولكنه يفرّ من نفسه.

20 ـ الوهـق

«مهما كانت الملحمة ممتعة في سائر أجزائها إلاّ أنّها دامية في نهايتها: ينهال على الجسد ترابٌ، وينقضي الأمر إلى الأبد».

(باسكال)

«الدنيا ذلك الأسر الذي يحرّرنا منه الموت».

(خان)

ولكنّها لاحقته كاللعنة. لاحقته في كل مكان. لم تقنع بملاحقته في المكان، ولكنّها لاحقته في الوجدان أيضاً. المرأة هي المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يقتحم الجرم ويلاحق الرجل في الوجدان. بل تروق لها ملاحقة الرجل في ساحة الدنيا كما تروق لها ملاحقة الرجل في ساحة الوجدان.

كانت تركض خلفه أينما حلّ لتلوّح في وجهه بتميمتها، لتذكّره بالوهق الذي أعدّته له، لتذكّره بالمكيدة التي نسجتها له في بطنها، لتبتزّه بسليل لم يرده لنفسه، لأنه لم يعترف لنفسه يوماً بسليل غير وصيّته التي يحملها شعراً في صدره. لأن وصيّته سلالة الحقيقة الملقّبة في لسان الأجيال باسم «تيدت»، ولكن سليلها سليل الجسد الملقب في لسان الأجيال باسم: «الوعاء الفاني».

واللئيمة تدرك ذلك بحدس الأنثى الذي لا يخطىء في الحساب. وإنجابها للسليل لم يكن منذ البداية سوى مكيدة لتضليله والنّيْل من وصيّته الأصليّة التي لم يركب الأهوال إلاّ من أجلها، بل ولم يولد إلاّ لإعلاء شأنها. كانت تلاحقه وتلوّح في وجهه بالوليد لتقول له بعضلة اللسان المسموم أنه إذا قرّر أن يتحرّر منها فإنه لن يستطيع أن يتحرّر

من سليله، لأن الأنعام العجم نفسها لا تتخلّى عن سلالتها فكيف بمخلوق يدّعي الانتماء إلى سلالة الأنام ويتباهى فوق ذلك بأنه شاعر؟

كانت تعدم المنطق لإقناعه، ولكنها لم تعدم المنطق يوماً لإسكاته. لا لأن حجّتها أقوى، ولكن لأن لسان المرأة دائماً أشرّ. لسان المرأة أشرّ لأنه لسان مسكون بالأرواح الشريرة. وقد أدرك صدق الحكيم القائل بأن المرأة كلّها شرّ، ولا تكون خيراً إلاّ مرّتين: مرّة في مخدع العشق، ومرّة على فراش الموت!

لقد أدرك أيضاً سرًا آخر. أدرك لماذا هجره كاهن الأجيال، وتخلّت عنه الشهوة إلى العرفان، وأضاع تعويذة المعاندة. أدرك أنها هي السبب. أدرك أن الجان الذي يسكن المرأة لا يجتمع مع الجان الذي يسكن المريد تحت سقف واحد. أدرك ذلك بعد فوات الأوان. لأن الدّاء الذي ينتهش الوجدان تحالف مع أدواء أخرى بدأت تنتهش البدن وتزعزع كيانه بالعلل. قام بزيارة العطارين، وقرع أبواب الدهاة بحثاً عن ترياق، ولكنهم أجمعوا كلّهم على القول بأن علّة البدن من علّة الوجدان، وعلّة الوجدان هو بها أدرى. وترياقها بيده هو لا بيد الأغيار.

لم يدهشه الجواب لأنه لم يتوقع أن يسمع غير ما سمع. حاول أن يجنح للسلم ويجد للمحنة مخرجاً بأي ثمن، فقال لها أنه قرّر أن يتنازل عن كل شيء ويفعل ما تراه له أن يفعل شريطة أن تدعه بين الحين والحين ليختلي بنفسه. كرّر لها أنه لا يريد في دنياه كلّها إلاّ أن يختلي بنفسه بين الحين والحين ليسترجع وجدانه الضائع. ولكنها سخرت منه وقالت أنها لا تستطيع أن تتخلّى عن منازعته لأنها من

سلالة لا تنازع إلاّ صاحب القربى، ولا تميت إلاّ من تحبّ! قالت أيضاً أن السرّ في الخلوة: إذا تركته لخلوته فقد سلّمته طائعة بيد عدوّتها، لأن ليس هناك ضرّة أخبث ولا أخطر على المرأة من خلوة الرجل مع نفسه!

أعيته الحيلة ففرّ من وجهها. فرّ خارج المدينة ليختلي بنفسه في كوخ استأجره من أحد الفلاحين. تخفّى هناك لا ليتأمّل الخفاء ويستجدي النبوءة كما اعتاد أن يفعل في رحاب صحرائه الكبرى، ولكن كي يتفرّغ لتأمل الكابوس. بلى، بلى. رحلته كلّها منذ أن خرج من فردوسه الصحراوي طلباً للعرفان لم تكن سوى كابوس في كابوس وهزيمة وراء هزيمة. فما معنى أن يفقد الإنسان التميمة في منتصف الطريق إن لم يكن ذلك تيهاً؟ وما معنى أن يغترب الإنسان إلى أبعد البلدان ليعرف ثم يعزف هناك عن العرفان إن لم يكن ذلك يأساً مميتاً؟ وما معنى أن يتخلّى المريد عن وصاياه ليستبدلها بوهقٍ اسمه القرينة ووهق آخر اسمه السليل إن لم يكن ذلك وهماً؟

كان يستطيع أن يحتمل كل شيء، ولكنه لا يستطيع أن يغفر لنفسه خطيئة واحدة هي: الخيانة! يستطيع أن يحتمل أي قصاص ولكن خيانة الوصيّة المخبوءة بعيداً في الوجدان هي الخطيئة الوحيدة التي لا يستطيع أن يشتريها أي قصاص، ولا يستطيع أن يغسل عارها أي قصاص. فهل هذا الهوان هو ما يسمّيه أهل البهتان في لغتهم البذيئة «رحلة الدنيا»؟ هل الدناءة قرين للدنيا؟ هل التنصّل من النبوءة شريعتها؟ هل خيانة الطلسم الذي يِتكلّم وسوسةً في صدور الأخيار ناموسها؟ هل التمرّغ في أوحال الكيد، والتقلّب في لذّات الأبدان،

وإلصاق الإهانات بكل ما أوصت به الحقيقة الملقّبة في لسان الناموس باسم «تيدت» هو عُرف أعرافها؟

ذهب إلى السهول الريفية المفروشة بالنبوت. استلقى هناك وتأمّل سماء زرقاء كأنها تعرّت من الغيوم كي تريه وجهها. تعرّت من ستورها كي تكشف له عن وجه لم يرَ له مثيلاً في الصفاء منذ خرج من ربوع صحرائه الكبرى لتقول له أنه إنّما اغترب عن الأرض في رحلته إلى أبعد البلدان، ولكنه لم يغترب عن السماء. اغترب عن معشوقته الصحراء، ولكن هيهات أن يغترب عن معشوقته السماء. لأنه يستطيع أن يستبدل الوطن بوطن آخر، ولكنه لا يستطيع أن يستبدل السماء بسماء أخرى. وهذا هو العزاء. هذه هي الهبة. هذه هي النبوءة. لأن الأرض وطن الناس، ولكن السّماء وطن الخفاء. ولهذا هي في كل مكان. ولهذا هي موجودة معنا حيث حللنا. ولهذا هي فينا أينما ذهبنا. ولهذا لا يفقد الغريب نبوّته بحلوله في أرض الغرباء ما دام يحمل في قلبه تلك السماء التي تضلّل رأسه. ولكن الإنسان يغترب عن السماء، عن الخفاء، عن النبوءة، عن الحقيقة، يوم يتنكّر للوصيّة المبثوثة في وجدانه. الإنسان يفقد وجدانه ذاته يوم يستبدل في وجدانه حبّه للسماء بحبّ أهل، أو حبّ خلّ، أو حبّ قرينة، أو حبّ سليل، أو حبّ غنيمة، أو حبّ أرض، أو حبّ حتّى وطن. لأن الحبّ الوحيد الجدير بأن يُنعت بالخلود هو حبّ السماء. وكل حبّ عداه وهم ووحل وبهتان. فلماذا يحزن إذا فقد الوطن ولم يفقد السماء؟ لماذا يغتمّ إذا كانت السماء التي عرفها في وطن المهد هي نفسها السماء التي تتمدّد الآن فوق رأسه وتتعرّى لتكشف له عن نفسها؟

ولكنه. . ولكنه لا يستطيع أن ينظر في عين السماء لأنه خان السماء، لأنه خان وصيّة السماء. لأنه تخلّى عن العرفان، لأنه تنازل عن كنزه الذي هدهده منذ كان في المهد صبيًا. لأنه تكاسل عن مطاردة حقيقته الملقبة في لسان الناموس باسم «تيدت». لأنه ضلّ! ضلّ! ضلّ!

ضلّ، وعليه الآن أن يطلب الغفران من صاحبة الشأن. عليه أن يرجو الغفران من السماء. السماء وحدها تستطيع أن تنزل القصاص وتستطيع أن تهب الغفران. السماء هي صاحبة الشأن. وهو لن يستطيع أن ينال غفران السماء بعيداً عن السماء. لن يستطيع أن ينال غفران السماء إلاّ بالاعتصام بالسماء. لن يستطيع أن ينال غفران السماء إلا بالالتحام برحاب السماء. . .

سَرَت النبوءة في بدنه. غمره فرح لم يذق لنظيره طعماً. ملأ صدره واجتاح الجسد كلّه فبكى من فرط الفرح. من فرط النشوة. نشوة أخرى غير النشوة التي عرفها في رحلة الكابوس. نشوة من جنس جديد. نشوة تفوق نشوة الوحي الذي يغذّي الذاكرة بقبس الأشعار. نشوة صيّرت له جناحين فأيقن أنه يستطيع أن يطير. يستطيع أن يطير ليدرك السماء. ليدرك الوطن. لينال الغفران. ليغسل العار. ليولد في بطنها ميلاده الثاني. فطوبى للفرار. طوبى لغسل العار. طوبى لمن حقّق الميلاد الثاني!

فزّ من الحقل وشرع يجري. يجري ويجري ويجري. كأنه يخشى أن يفقد الفرح. كأنه يخاف أن يفقد النشوة. كأنه أراد أن يحتفظ بالإلهام. كأنه أراد أن يدرك الكوخ قبل أن تتبدّد النبوءة. اندفع داخل الكوخ. بدأ يفتّش الأركان وهو يردّد كالمحموم: «الوهق! الوهق! أين

الوهق؟». لم يجد الوهق، فجنّ! فتّش في كل ركن. بحث في كل زاوية. قلب المفارش والأغطية والصناديق وكلّ حطام، ولكن الوهق المفتول من حبل المسد الذي ابتاعه من أحد التجّار القادمين من وراء البحار اختفى!

اختفى الوهق فاغتمّ وهام هنا وهناك كالممسوس. البلبال قضى على الفرح وطرد آخر فلول النبوءة. فقد السكينة فهام حول الكوخ حتى حلول الظلمات. بدأ الفضاء يتبلبل ويتشوّش أيضاً. زحفت غيوم وحجبت عنه سيماء السماء. عبست في وجهه السماء بأقنعة السحب فاغترب من جديد. اغترب كما اغتربت معشوقته الثريّا منذ قليل ففقد السكينة كما تفقد الكائنات السكينة عندما تغيب الثريّا. فقد السكينة لأنه أراد أن يلتحق بالثريّا، ولكن فقدان الوهق خذله فلم تعد الأرض تسعه. هام في الحقول الملفوفة بالعتمة، وسلك الدرب المؤدي إلى غابات البتولا، ثم عاد على عقبيه باتجاه الكوخ عندما اصطدم بشبح. بدأت الريح الشمالية تزفر أنفاساً باردة محمّلة بذرات ثلج تصفع الوجوه بقسوة. في الشبح عرف سيماء صاحب الكوخ. كان يجاهد ليحمي وجهه من غزوات الريح المحملة بحبيبات الجليد بذراعه اليمنى، يتدلّى من يده اليسرى جرم كالحبل! لم ينتبه في البداية لحقيقة الجرم إلاّ عندما تكلّم الفلاّح الشقي وهو يلوّح في وجهه بالوهق قائلاً ببراءة الفلاحين: «جئت لأعيد الحبل. لقد اتخذته لجاماً للدابة في المرّة الماضية ولم أستأذنك لأني لم أشأ أن أكدّر خلوتك يومها في الحقول!». الوهق! الأقدار بعثت له بالوهق. اختلس أشرار الجان من بين يديه الوهق بيد الفلاّح البليد، ولكن الخفاء استردّ الوهق من بين

يديه لأنه أراد به خيراً. لأنه أراد خلاصه. لأنه لم يشأ أن يحرمه من نعمة الغفران. من نعمة السماء. السماء. السماء. الآن يستطيع أن يفرح. الآن يستطيع أن يرقص. الآن يستطيع أن يغنّي. الآن يستطيع أن يردّد اللحون ويرتّل الأشعار. الآن يستطيع أن يتحدّى الدنيا ويقهر الكابوس. الآن...

فرّ إلى الكوخ المشيّد من جذوع الصنوبر. أوقد الشموع وتطلّع إلى السقف الملفّق من الجذوع المسودّة بفعل دخان نيران الموقد. تسلّق الركيزة مستعيناً بقطع من أعمدة الجذوع اعتاد صاحب البيت أن يتخذها مصاطب للجلوس. أحكم ربط الحبل في عمود السقف. أدخل رأسه في عقدة الوهق. سكن غمضة، غمضتين، ولكنه لم يتردّد. لم يتزلزل بهول ما يفعل. ربما لأن القلب ما زال مترعاً بالفرح. فرح الخلاص. فرح اليقظة من الكابوس. فرح الاعتصام بحرم السماء. فرح العودة إلى الوطن. فرح العودة إلى الوطن الأعلى لا الوطن الأسفل.

تنفّس الصعداء وركل الجذع بقدمه!

21 ـ البرزخ

«الذي يحبّه أبوه يؤدّبه، ويجلد كلّ ابن يقبله. إن كنتم تحتملون التّأديب يعاملكم الله كالبنين. فأي ابن لا يؤدّبه أبوه؟».

(القدّيس بولس)

تخلّى عنه الجذع السفلي فتدلّى. تدلّى فأحكم وهق المسَد حول رقبته قبضته. نزّت حدقتاه من محجريهما وضاق في الصدر النفس. حشرج بفحيح خفيّ كفحيح الحيّة ورأى نور المشعل يتضاءل ويتضاءل حتّى اختفى لتزحف على الدنيا الظلمات. حشرج صدره بالفحيح مرّة أخرى ولكن حشرجته تواصلت في حشرجة أقوى، في فحيح أقوى. فحيح عنيف، لجوج، مضى يتعالى ويتمادى حتى انقلب فحيحاً شبيهاً بفحيح الريح في رؤوس الأشجار أو فحيح النّار في يبيس الهشيم. في مجاهل الظلمة ومض قبس. في القبس رأى شعلة شرهة كلسان الحيّة تتلاعب يمنةً ويسرةً في إغواء مريب. علا صوت الفحيح المنكر من جديد فأبصر في نور الشعلة رأس الحيّة. كانت تنتصب في وجهه ببدن من نار، وتحدّق في عينيه بعينين من نار أيضاً فلم يدرك عمّا إذا كانت الشعلة هي التي تحوّلت إلى جرم الحيّة أم أن الحيّة التي سمع فحيحها يتمادى في مجاهل الظلمات هي التي تحوّلت إلى شعلة النار. ما يدريه هو أنه قرأ الرسالة في حدقتها النارية الرهيبة في غمضة. ذكّرته بحقيقته الضائعة في غمضة. ذكّرته بحقيقتها الضائعة في الغمضة أيضاً. استشعر الشعلة تزحف نحوه وتتسلل لتلج صدره. استشعر جرم الحيّة

يغيب في لسان الشعلة، (أم لسان الشعلة هو الذي غاب في جرم الحيّة؟) ليتسلّل إلى صدره. طفح قلبه بنشوة شبيهة بالنشوة التي استشعرها ساعة فاز بالوحي، فانتصب في وجهه الدليل القديم. استظهر كاهن الأجيال، كما تستظهر أشباح الجنّ، وابتسم في وجهه بسمة لا تُنسى. ابتسم بعينيه وتكلّم. تكلّم لأوّل مرّة. تكلّم برغم أنه لم يقل غير كلمة واحدة. كلمة واحدة ولكنها كانت تكفي لأن تقلب حياته رأساً على عقب. هزّ رأسه بسكينة الكهنة الأوائل وتمتم: «أحسنت!».

فماذا أراد الحكيم أن يقول؟ ما معنى أن يحسن إنسان يختنق؟ ما معنى أن يحسن إنسان يلفظ أنفاس النزع الأخير؟ ما معنى أن يحسن إنسان قرّر أن يضع حدًّا لمهزلة دنياه؟ هل أحسن بهذا الفعل للأغيار أم أحسن لنفسه؟ أم أنه أحسن بهذا الفعل للأغيار ولنفسه معاً؟ وهل يعني هذا أننا نحسن إلى أنفسنا عندما نضع للمهزلة خاتمة كما نحسن للأغيار أيضاً؟ أيعني هذا الفعل، إذن، بطولة بعدما رآه دهاة القبائل جبناً في جبن؟ أم أن هذا الفعل قد يكون جبناً في حال كما ينقلب بطولةً في حال؟

كاهن الأزل المقنّع برقعة الجلد لم يزد على عبارته المقتضبة، الحاسمة، عبارة أخرى. في مقلتيه تبدّت بسمته كرّةً أخرى. مدّ يده الموسّمة بغضون الزمان فأبصر فيها جرماً. مديّة ذهبية. كلاّ، كلاّ. تلك لم تكن مدية ذهبية، ولكنها حيّة شبيهة بالحيّة التي تسلّلت لتستقر في صدره منذ حين. بل أنها ليست حيّة أيضاً. لأنها تحوّلت في رمشة عين إلى شعلة. استبقى اللسان الناري في كفّه غمضة، ثم

لوّح بها في الفراغ فاحتفرت أخدوداً في ستور الظلمة، قبل أن يوجّه بها طعنة مميتة إلى السماء، إلى جرم في السّماء، إلى جرم معلّق بين هاوية الأرض ورحاب السماء، فما لبثت الدنيا أن تزلزلت، فانقشعت ستور الظلمات. انقشعت ستور الظلام فهوى. هوى من علوّ، واندفع يهوي. يهوي في جوف هاوية بلا قاع. في رحلة الهاوية رأى كل شيء. رأى حُلماً. رأى رؤيا. رأى النبوءة التي لم يُقدّر له أن يحدّث بها الأغيار، بل ولم يحدّث بها حتّى نفسه، لأنها لو جرت على اللسان، وتلقّفتها الآذان الظمأى دوماً للسماع، لما صارت نواة للملحمة. لما صارت حجر زاوية في كيان مرثيّته الكبرى التي بدأ ينسج خيوطها ما أن حقّق الشفاء، وبُعث من رحلة الظلمات حيًّا.

ولكنه إذا كان مقدّراً له أن ينسى، إلاّ أنه لم يستطع أن ينسى الصفاء الذي عاشه بعد الميلاد. لم يستطع أن ينسى ولا أن يصف الإحساس الذي استولى عليه ساعة استيقظ من غفوته الرهيبة ووجد نفسه يستلقي بجوار ركيزة الكوخ الخشبي، حول عنقه يلتف وهق المسد الشرس، في الركن تتلظّى بقيّة هزيلة من شعلة السراج. فهل هذا هو ما يسمّيه كهنة الأجيال في لغتهم القديمة خلاصاً؟ هل هذا هو ما يصفه سحرة القبائل في ناموسهم باسم الحريّة؟ وهل هذا ما ينعته عشّاق العزلة بالسكينة؟ أم أن هذا هو تلك الأحجية الغامضة التي يصفها دهاة السرّ بالميلاد الثاني؟

جاهد يلتهم الهواء. حشرج وفتح فمه ومنخريه ورئتيه وعينيه وبطنه وكل عضو في بدنه، وكل فتحة أو عرق أو خلية ليلتقط الهواء.

التقط بشراهة. تجرّع الهواء بجشع يفوق جشع الظمآن إلى الماء. تجرّع وتجرّع ولكنه لم يشبع.

حرّر رقبته من الوهق المميت بيدين مرتجفتين متعطشتين إلى الهواء. نهش وهق المسد من رقبته لحماً فنزف الجيد دماً ولكنه لم يستشعر ألماً. لم يستشعر أوجاع البدن لأن الظمأ إلى الهواء جبّ في طريقه كلّ ألم وكل إحساس سوى الإحساس بالحاجة إلى الهواء. بالحنين إلى الهواء. حنين شبّهه في أشعار السنين التالية بالحنين إلى الحقيقة الملقبة في لسان الناموس باسم «تيدت». حنين البدن إلى الهواء حنين جسد. وحنين النفس إلى الحقيقة حنين روح. لأن حقيقة الجسد الهواء، وهواء الروح الحقيقة.

ظلّ ينهل من ينابيع الهواء حتّى الهزيع الأخير من الليل. سرى بلسم الهواء في الجسد فانتعش الوجدان بالفضول. استيقظ الفضول فنهض ليتفحّص الحبل اللعين. تأمّله في ضوء الشعلة الزائلة فاكتشف السرّ: لقد انقطع الوهق بفعل فاعل! لقد انقطع في الجزء العلوي الذي يلي ربطة العنق. انقطع بنصل، وربما بنهشة من نار، أو بأنياب وحش. ماذا؟ هل قال أنياب وحش؟

وجد أن الجزء الذي انقطع مهروساً مما يقطع بأن أنياباً شرسة مضغطته. فهل هي أنياب الحيّة؟ أم أنها أنياب دابّة الفلاّح الشقي مضغطته عندما صنع لها منه لجاماً؟ ولكن. . ولكن كيف لم يلحظ تلف الحبل عندما أبدع لنفسه منه مشنقةً؟

ابتسم باستخفاف لأنه تذكّر أن الإنسان لا يستطيع أن يتبيّن تلفاً

في حبلٍ ساعة المسّ التي يتأهّب فيها للخروج الحقيقي. لأن لا خروج حقيقي إن لم يكن خروجاً بالوهق، إن لم يكن خروجاً في رحلة الأبد.

22 ـ البعث

«لا يدخل ملكوت الله من لم يولد مرّتين».

(الكتاب المقدّس)

لم يدرِ كم استغرقت غيبته، ولكنه لن ينسى يقظته.

قد ينسى حلم غيبته، ولكنه لن ينسى رؤيا يقظته. فما أن فتح عينيه، وتطلع حوله، حتّى استولى عليه السّهم الناري المنبعث من قوسٍ قانٍ يتلبّس المرج الأخضر الذي يفصل الكوخ عن الغاب. سهم يقتحم الباب المشرّع، ويغمره بدفء حميم لم يعرفه في مناخ هذه الأنحاء لا في زمن الأصياف فكيف بمواسم الشتاء؟ دفء لم يدغدغ فيه البدن، ولكنه تسلّل إلى المجهول، وداعب في النفس لغزاً. هذا اللغز هو الذي تململ فأيقظه. لم يوقظه من سنا ليلٍ، ولا من إغفاءة الجسد، ولكنه أيقظه من هجمة الدهر، من نومة الكابوس، من منفى الأبد. لم ينتفض كما اعتاد أن يفعل كلّما استيقظ من نومة، ولم يفزّ من هجعته كما اعتاد أن يفزّ في كل مرّة عندما كان يحيا حياة الدنيا، ولكنه انسلّ بيقين كما تنسلّ الحيّة. بل انساب كما ينساب الماء في القيعان وتطلّع. تطلّع إلى السهم الناري برهة قبل أن ينقاد إليه مسلوب الإرادة. زحف خارج الكوخ دون أن يدري ودون أن يرفّ بجفنه خوفاً من أن يفقد الخيط الغامض الذي يتدفّق في جوفه ويشدّه إلى رحاب الأفق. زحف بهدوء. زحف بمرونة الحيّة. زحف بيقين الماء ولم يتوقف حتّى بلّل عشب الحقل راحتيه وركبتيه بقطرات الندى.

لحظتها تشظّى السّهم المدهش وتناثر في وابلٍ من السهام النارية.
لم تتناثر النّبال يمنةً ويسرةً، ولكن القوس المزموم المتستّر بشعفة الرابية صوّب نحوه حفنة السهام ليرميه بها ببراعة من اعتاد أن يصيب الهدف دائماً. رماه بالحفنة فأغمض عينيه فزعاً. كلاّ، كلاّ. لم يغمض عينيه فزعاً، ولكنه أغمض عينيه وجعاً. آلمته النّبال النارية في حدقتيه فأغمضهما غصباً. نهض على قدميه مسبل الجفنين، ولم يفتحهما إلاّ بعد أن اعتدل في وقفته. فتحهما فرأى عجباً...

رأى القوس ينمو ويتسع ويتحوّل إلى جرم مستدير صارم في الاستدارة، يكاد يفزّ منه الدّم، وبرغم ذلك لا يكفّ عن الجود بفيوضه الذهبية التي تغمر الحقل، وتطبع على شعفة الرابية علامة، ثم تلثم لسان الماء في أخدود الحضيض لترسم هناك طلسماً آخر يستعسر فهمه برغم أنه لا يجد عسراً في أن يقتحم. لم يقتحم الأركان حوله وحسب، ولكنه تسلّل مع الهواء واقتحم قلبه.

سرى في الدّم فغمره بالدفء الذي لم يعرفه في دفء النار لأن سجيّته لم تكن مستعارة من نار الدنيا ولكنها من دنيا المجهول. فهل هذا هو سرّ الصقيع الموجع الذي تلبّسه كاللعنة منذ نزل الأرض وعرف حضيض الدنيا؟ صقيع لا يفتك بالجسد بقدر ما يصيب اللّغز المتخفّي وراء الجسد؟ صقيع كريه يفوق جليد بلاد الديلم شراسةً؟

دبّ إلى الأمام. ذهب للقاء الفيض الغامض الذي يفترش عشب الحقول ويغمر أشجار البتولا بالرّداء المرشوش بالذهب. ذهب للقاء السرّ الذي يتلألأ في العراء ويحتضن أدغال الغاب وبرغم ذلك يسري في القلب قبل أن يسري في الكون. يسري في الوجدان قبل أن يسري

في طبيعة الشمال القاسية. ينزل الرحمة باللغز المجهول المحتجب بعيداً بعيداً في النفس قبل أن تتنزّل رحمته في أرض الصقالبة التي لم تعرف غير العبوس ولم ترتدِ لباساً غير لباس الجليد. ولكنه في الطريق إلى السرّ اعترضه سرّ آخر. في طريقه إلى الأعجوبة اصطدم بأعجوبة. اصطدم بقبس آخر شبيه في غموضه بقبس السماء. اصطدم بالماء! اصطدم بلسان الماء الذي أقبل من المجهول، وسطّر في الأرض، وهو يتلوّى ويحتال على عقبات الحضيض بفنون الكرّ والفرّ، علامة المجهول. في سيمائه تلتمع فيوض الغموض بأسطورة العجب ليروي بها سيرة انتمائه إلى سلالة السّماء. فكيف لم يعرف هذا الكنز من قبل؟ كيف لم ينتبه لمرأى هذا العجب الذي يسري تحت قدميه؟ كيف بحث عن الأعاجيب في أبعد أرض ولم يهتدِ في مسيره إلى وجود العجب تحت قدميه؟ كيف تطلّع إلى السماء العمر كلّه ولم يتبيّن في رحابها المعجزة؟ أم أنه لم يتبيّن في رحابها شمساً لأنه لم ير فيها إلاّ ظلاماً؟ أم أنه لم يرَ النهر طوال هذه الأزمان، ولم يشهد في لسان الماء سرّاً كل العمر، لأن كابوس الدنيا أخرجه عن طوره، وأمات فيه الحنين إلى السرّ، وضلّ به عن سبيل الحقيقة الملقّبة في لسان الأجيال باسم «تيدت»؟

في المسافة التّالية تحمّم بحمّى أخرى. وراء لسان الماء اللعوب سرح في الخلاء فراش العشب البكر بكبرياء. سرح في امتداد سخيّ نحو جهة الشرق حتى غاب في زحام سيقان الغاب. غاب في دغل تتشابك فيه أشجار الصنوبر بأشجار البتولا. تتشابك الأشجار وتتسابق بسيقانها المكابرة لتتسلّق فراغ السماء المغمورة بفيوض الضياء. تتسلّق

الفراغ باستعلاء الحسان لهفةً لنيل طلسم مجهول. ترتحل عن الحضيض لتقيم البرهان بلا مبالاتها، باستكبارها، بعزلتها. ولكن.. ما حاجتها إلى برهان إذا كانت هي البرهان؟ ما حاجتها لأن تخترق الهواء وتتسلّق السماء لتقيم البرهان على وجود ما لا يحتاج وجوده إلى برهان إذا كانت هي نفسها البرهان وهي نفسها الوجود المبهم الذي لا يحتاج وجوده إلى برهان؟ لأنه.. لأنه أدرك الآن فقط أن هذه الأحاجي التي لم ير فيها قبل اليوم سوى أجساماً وأسماء وأشياء ليست بأجسام ولا بأسماء ولا بأشياء، ولكنها شيء آخر لا يعرف ماذا يسمّيه. شيء آخر أقرب من الخلّ ومن الحميم ومن القرين. شيء آخر يراه الآن بعين البصيرة بعدما حجبته عنه عين البصر طوال هذه السنين. شيء آخر لا تفصله عنه المسافة، ولا تستره عنه الظلمة، ولا وجود له في مكان آخر خارجه. ففيض الضوء لم ينطلق من القوس المزموم الطالع من وراء الرابية، بل ينطلق من صدره هو. والماء المتدفّق في أخدود النهر لم ينبع من حضيض الأرض، ولكنه ينبع من قلبه. وفرشة العشب لم تسرح في الخلاء، ولكنها كانت تتمدّد طوال هذا الزمان في أعماقه هو. وأشجار الصنوبر في التحامها مع أشجار البتولا لم تنطلقا في الرحلة إلى الأعالي لتقبيل الشمس في الفضاء الواسع، ولكنها نبتت في قلبه هو، وتعانقت في فضائه هو، وتسابقت لتقبّل شمسه هو. فأي جنس من «سخرك إبراضن»[1] أغواه طوال هذه السنين إلى حدّ اغترب فيه عن نفسه قبل أن يغترب عن دنياه وقبل أن

---

(1) «سخرك إبراضن»: طائر صحراوي يأتي إلى البيوت ليغوي الصغار ويذهب بهم إلى التّيه كما تقول أساطير الطوارق.

يغترب عن الخلق؟ أم أنه لم يغترب عن حقيقته، ولم ينكر قلبه المغمور بالنور والماء والعشب إلاّ بعد أن سلم زمام أمره بيد الخلق، واستبدل قلبه بقلب آخر ملفّق من حجر؟

الآن استشعر الدفء. لم يستشعر الدفء وحسب ولكنه استشعر الطفولة. استشعر الطفولة فكفّ لأوّل مرّة عن الإحساس بالعزلة. لم يعد وحيداً. لم يعد غريباً. لم يعد مهجوراً. لأنه.. لأنه استعاد التحامه بالأحاجي التي ظنّها يوماً أشياء. اندمل الجرح الذي غرّبه عن كل ما يُرى فحقّق الهدنة مع ما لا يُرى. حقّق الهدنة مع ما لا يُرى فتوقّف النزيف الذي نزّ طويلاً، طويلاً. توقّف النزيف فحلّت السكينة. حلّت السكينة فحلّ في شجرة البتولا وحلّت فيه شجرة البتولا. حلّت السكينة فحلّ في لسان الماء وحلّ فيه لسان الماء. حلّت السكينة فحلّ في خيوط الضياء وحلّت فيه خيوط الضياء. حلّ في كل شيء وحلّ فيه كل شيء فتلاشى الوجع. تلاشى الإحساس بما ظنّه أعداء. تلاشت الإرادة لأنه لم يعد في حاجة لأن يريد شيئاً. لم يعد يريد فنال فردوساً. نال الفردوس فحقّق، دون أن يدري، حقيقة الدنيا التي طاف في سبيل نيلها الآفاق. حقّق الحقيقة التي أفنى عمره كله في طلبها ولم يدرِ أن الحقيقة الملقبة في لسانِ الأجيال باسم «تيدت» ليست في المكان، ليست في أي مكان، ولكنها كانت أقرب له من حبل الوريد. لأنها فيه هو تخفّت هذه الحقيقة. ولكن كي يكتشفها لا بدّ أن يعبر، ويعبر، ويعبر، حتى يصيبه العبور بالدوار، ثم بالغثيان، ثم بالاشمئزاز، ثم بالرغبة في الخروج، ثم بالرغبة المحمومة في الخروج، ثمّ بالاحتكام إلى الوهق. بلى. العبور لا ينتهي إلى الحقيقة

إن لم يتدخّل الوهق. العبور لا ينتحل هويّة الخلاص إذا لم يحفر الوهق في الأعماق النفق!

23 ـ الخلاص

«هـوذا الآن وقـت مَـرْضـيٌّ، هـوذا الآن وقـت خلاص».

(القدّيس بولس)

بالتخلّي عن الإرادة نال بالمقابل تسليماً لم يعرفه قبل ذلك اليوم. سمع الأغيار يتشدّقون بالتسليم مراراً ولكنه على يقين أنّهم لم يذوقوا له طعماً يوماً. لأن التسليم لا يطرح في القلب السعادة فحسب، ولكنه يفجّر في القلب الأشعار أيضاً. فقد غنّى في ذلك اليوم الخالد الذي تحرّر فيه من ظلمات القمقم، وحطّم سلسلة السبعين ذراعاً. غنّى بأعلى صوت. غنّى بأنقى صوت. غنّى حتّى استجابت لغنائه حسان الجنّ في وادي «آوال»، وطربت لأشعاره عذارى القبائل، وولولت لمرثيّاته عاشقات صحرائه الكبرى حزناً على عشاقهنّ الذين اغتربوا ولم يعودوا من غربتهم أبداً.

كان قلبه ما زال يتدفّق بأحلى الأشعار وينزف بأنبل المراثي ساعة أقبلت عليه كالشبح لتقدّم له التعزية في محنة الوهق، كما أخبرت، بدل أن تقدّم له التهنئة إكباراً لرسالة الوهق!

أقبلت كالجنيّة مع الغسق، وقبعت قبالته لتطلق العنان لعضلة لسانها. أطلقت العنان لعضلة اللسان ولم تكفّ عن السرد حتى مطلع الفجر. تكلّمت فقالت أنها لم تطمع يوماً في امتلاكه، لأنها بسليقة جنس الرجال أعلم، فكيف إذا كان هذا الرجل مريداً وصاحب مسّ؟

قالت أيضاً أن رجلاً لا يعشق الخلاص ليس رجلاً، والمرأة لا تعشق في الرجل شيئاً كما تعشق الحريّة. وعندما تحتال المرأة لتعتقل الرجل بجسدها لا تفعل ذلك تحقيقاً للملكيّة، ولكن للاستيلاء في الرجل على الحريّة. للاستيلاء في الرجل على كنزه، على مسّه، على جنونه، لأن المرأة مهما ادّعت المسّ، مهما ادّعت الجنون، فإن مسّها، أو جنونها، يظلّ مسًّا مفتعلاً، جنوناً مفتعلاً، مجرّد ادّعاء لا أساس له من صحّة ولا من أصالة. ولهذا فإن أشعار المرأة دائماً أشعار خاوية. المرأة خلقت لتغنّي الأشعار لا لتقول الأشعار. المرأة مخلوق خلق ليستعير الأشعار لا ليبدع الأشعار. ربّما لأن المرأة نفسها شعر. ربّما لأن المرأة خلقت لتتغنّى بها أشعار الشعراء أو لتتغنّى هي بأشعار الشعراء، ولكن لم تُخلق لتخلق الأشعار. هذا هو سرّ لهفة المرأة إلى الشعراء.

هذا هو سرّ مطاردة ملّة النساء لسلالة المريدين والممسوسين والعشّاق الذين تسري في أبدانهم دماء الجنّ. قالت أيضاً أن المرأة تعلم أن الاقتران بأبناء هذه السلالة الشقيّة عمل محفوف بالخطر وتجربة لا بدّ أن تنتهي بالإخفاق، ولكن عزاء المرأة في خوض المغامرة هو السليل. ذلك أن المرأة التي أعجزتها الحيلة في أن تنتزع من الرجل سرّ جنونه لا بدّ أن تنتزع ولداً من صلبه على الأقل. لأن المرأة تريد أن تتحدّى بهذا العمل الطبيعة الأم فتزرع في بدن الولد عقل الأب بدل عقلها هي ليقينها بأنّه إذا كان عقل المرأة الجمال فإن جمال الرجل في العقل. ولهذا فإن المرأة التي ترفض الهزيمة بطبيعتها سرعان ما تسترد الموقع الذي خسرته بهذه الحيلة الصغيرة: حيلة

اختلاس سرّ الرجل من صلب الرجل بعون فخذتيها. بعدها تستطيع أن تستسلم لقدرها لتصير في الصفقة أمّا. تقدّم لقبها الشهيّ كأنثى، تقدّم لقبها المثير كحسناء، وربّما ربّة حُسْن، قرباناً في مقابل الفوز بلقب الأمومة المهيب، لأنها تعلم أنها لن تستطيع أن تحتفظ بالدمية إلى الأبد، لن تستطيع أن تحتفظ بالرجل المطوّق بلعنة الجنون إلى الأبد، فتتخلّى، أو تتظاهر بأنها تتخلّى، بل وتضحّي هي في سبيل أن يذهب هو ليجري وراء سرابه، ليطارد أحلامه، ليحقّق أحلامه برغم أنها تعلم أنها سوف تفقده إلى الأبد لا لأن الحرية سوف تأخذه منها، ولكن لأنه سيلاقي حتفه قبل أن يحقّق أحلامه، سيلقى حتفه قبل أن ينال حريّته.

تتظاهر المرأة بالفداء برغم أنها تعلم أن لا وجود لكبش فداء يمكن أن يقارن بالرجل. لأن الرجل يذهب ليموت على قارعة السبيل وهو يطارد أوهامه، ولكن المرأة تحجم في الوقت المناسب لتنتصر. تنتصر في صفقة استبدلت فيها دمية بدمية. استبدلت فيها دمية كبرى باسم الرجل بدمية صغرى باسم سليل الرجل.

قالت بياناً آخر فهم منه نصيباً أصغر وغاب عنه النصيب الأكبر.

قالت وقالت حتّى اضطرّ أن يقمع على لسانها القول بسؤال: «ولكن بحق الربّة تانيت من أنتِ؟».

لم تصدّق سؤاله فأطلقت ضحكة عصبيّة. سكتت ولكنها سرعان ما استعادت ثقتها بنفسها لتجيب على سؤاله بسؤال: «أتنكرني؟».

فأجابها بقول مستعار من ناموس التسليم:

«ظننت يا مولاتي أنّنا يجب أن ننكر حتّى من عرفنا، فكيف لا ننكر من لم نعرف؟».

رمته بنظرة غضب، ولكن الغضبة تحوّلت ذهولاً. ولكنها تمالكت نفسها مرة أخرى. قالت بحزن: «إذا لم يكن النكران، فلا شك أنه النسيان!». رمقته خلسة ولكنه سرح ببصره في السهول المكسوّة بالعشب الأخضر، على شفتيه ابتسامة غامضة، في عينيه سكينة المعتزلة الأبديين. قالت كأنها ترثيه لنفسها قبل أن ترثيه للأغيار: «النسيان هو البلاء الأسوأ من الموت!».

24 ـ المراثي

«أهو قَدَر أن نقضي نحبنا ظمأً فوق فوهة البئر التي تخفي الحقيقة؟».

(روسّو)

يُروى أن الأوائل إذا أصابهم الوباء أو سمّمت دنياهم العلل قبل أن يبلغوا من العمر عتيّاً، ذهبوا إلى أبعد خلاء وخاطبوا الخفاء بأعلى صوت: «أنا يا مولاي أريد أن أحيا لأني لم أزرع في رحم الحسناء ولداً، ولم أردّ عن القبيلة عدوًا، ولم أقل في مديح الحنين شعراً، فبأي حقّ تريدني أن أموت؟ لقد قررت أن أحيا، لا أن أموت!» فيردّ عنهم الخفاء شبح الموت حتى يبلغوا من العمر أرذله.

وإذا بلغوا من العمر أرذله وضاقوا بالشيخوخة ذرعاً، ذهبوا إلى أبعد خلاء وخاطبوا الخفاء بأعلى صوت: «أنا يا مولاي لا أريد بعد اليوم أن أحيا، لأني زرعت في رحم الحسناء ذريّة، وصددت عن أخبية القبيلة أعدائي، وقلت في مديح الحنين أشعاراً، فبأي حقّ تريدني بعد اليوم أن أعيش؟ لقد قررت أن أموت، لأني لا أريد أن أحيا!» فيلبّي الخفاء لهم النداء فيموتون.

ويوم ذهب إلى الوهق ليحرّر الوجدان من طغيان البدن لم يدرِ أنه بهذه البطولة إنما يحرّر البدن من علل الزمان ومن أغلال المكان أيضاً.

لقد زلزل الجسد بقبضة الوهق فوُلد الوجدان، وبميلاد الوجدان استشفى الجسد. ولولا استشفاء الجسد لما استطاع أن يتزحزح نحو الخلاص يوم وجد نفسه يتنحّى عن المكان ويهجر الأرض.

ذهب إلى أوطان الغرب كأنه يريد باللجوء إلى ديار «توات»[1] أن يستجيب لنداء الوصيّة الصحراوية القديمة التي ترى في كل جرم لا يستدير أو كل حركة لا تنتهي إلى حيث بدأت خرقاً للناموس وانتهاكاً لأعراف الخفاء. ولهذا السبب عبدوا كل شكل مستدير، وصمّموا أضرحتهم الملقبة في لغة الأجيال باسم «إدبني»[2] في أجرام دائرية. وها هو يجد نفسه يرسم برحلته دائرته الجليلة دون أن يدري. فقد انطلق يوماً من أرض الجنوب واتّجه شمالاً، ثم انحرف يوم عبر البحور شرقاً ليستقر به المقام في وطن الدّيلم، ثم تزحزح شمالاً لينزل أرض الصقالبة، وها هو يتنحّى عنها بعد الاستشفاء لينطلق غرباً، دون أن يتدخّل ليضع لمسيرته تدبيراً يوماً. لأنه لم يعلم أيضاً أن سلالة المسّ التي اختارها الخفاء لتكون له في الأرض رسلاً لا تسعى في الأوطان وفقاً لمشيئتها، ولكنها تنقاد نحو أقدارها بإرادة الخفاء الذي سخّرها.

وها هو يقرع أبواب «توات» المجيدة، وها هو يتأهب لدخول حرم «أمداوات»[3] الخالد، وما عليه إلاّ أن يجدّ الآن لقول مرثيّته التي

---

(1) «توات»: أرض الغرب التي يعود إليها كل الأموات في ميثولوجيا الطوارق وكذلك في ميثولوجيا قدماء المصريين.

(2) «إدبني»: اسم أضرحة الطوارق وهي لفظة تعني حرفياً «دائرة» بلغتي الطوارق وكذلك بلغة مصر القديمة.

(3) «امداوات»: أرض الخلود، أو حرفياً «أرض الفرح» في ميثولوجيا الطوارق ومصر القديمة، وهي الرديف لمفهوم الفردوس في الديانات السماوية.

لم يولد إلاّ ليكتب أبياتها بدمه، ولم يوجد في صحرائه إلاّ لينحتها على جدران غيرانها بسيرته، فمرحى! ثم مرحى!

في وطن «توات» اعتلى هامة الجبل ليشرف من هناك على الأرض التي تحتضن خلوة السكينة الملقّبة في لغة الأجيال باسم «امداوات»، لا لتكون له على مرمى البصر، ولكن ليستلهم من جوارها وحياً يستعين به على تأسيس بنيان مرثيّته التي قُدّر لها أن تتحوّل من مرثية إلى مراثٍ بدأها في صبيحة أحد الأيام بملحمة «النزيف»، وتبعها بمرثية «الكنز»، وبلغ بها الذروة في ملحمة «الممسوس». كان يلهث. كان ينزف. كان يذوب في أشعاره كما يذوب الشحم على الجمر. ولكنه لم يتوقّف. لم يلتقط أنفاسه. لم يلتفت وراءه. لأنه لم يعد يرى ما يُرى، ولكنه لم يعد يرى إلاّ ما لا يُرى، فتدفقت الأشعار في وجدانه أكثر مما جرت على لسانه إلى حدّ أنه عجز عن ملاحقتها. ولكنه لم يستسلم. بدأ في تشييد بنيان جديد. شيّد بعد زمن قصير صرح «حشائش الظلمات»، ثم تبعها بملحمة «المريد» بعد ذلك بزمن قصير. ثم بمرثيّة «البعبع» أيضاً، فردّدت أشعاره ألسنة القبائل، وروت ملاحمه أفواه الأمم حتّى صارت بتدفق الأيام عرفاً للصحراء وناموساً لأهلها الذين ظنّوا أنهم يردّدون أشعار مخلوق هجع مع من هجع من الأسلاف الأولين. لأنهم لم يتعوّدوا أن يردّدوا أشعاراً تروي تجربة التحديق في مجاهل الأبدية لشعراء على قيد الحياة. ونسوا أن لا وجود لفرق بين من يحدّق في مجاهل الأبدية وبين من نزل هاوية الظلمات يوماً، ثم خرج من هناك ليعتصم بحرم الخفاء في عزلة الغيران. لأن التحديق في مجاهل الأبدية التي تظنّها

الأقوام أعجوبة الأنبياء أمر لا يختلف عن تأمل واحة «امداوات» التي تتدفق مياهها في القلب. والبلهاء وحدهم لا يدركون أن نَيْل الحقيقة (الملقّبة في لسان الناموس باسم «تيدت») لا يتحقّق إلاّ لمن أُوتي الشجاعة يوماً كي يميت نفسه.

غولديفيل (الريف السويسري)

ماربيلا (إسبانيا)

يونيو ـ أغسطس 2004 م

مؤلفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البرّي (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماويّة (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000مم.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أرباب الأوطان 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أرباب الأوطان 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون 2004م).

52 ـ مراثي أوليس (رواية 2004م).

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

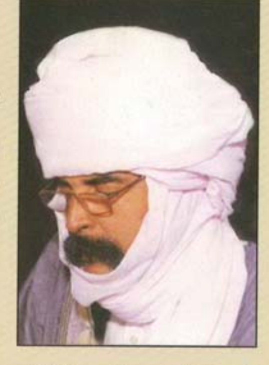
53 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

54 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

55 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

الفهرس

رواية
NOVEL



مَراثِي أُولِيس

(المُريـد)

قالت بياناً آخر فهم منه نصيباً أصغر وغاب عنه النصيب الأكبر . قالت وقالت حتّى اضطرّ أن يقمع على لسانها القول بسؤال :

« ولكن بحقّ الربّة تانيت ، من أنت ؟ »

لم تصدّق سؤاله ، فأطلقت ضحكةً عصبيّةً . سكتت ولكنّها سرعان ما استعادت ثقتها بنفسها لتجيب عن سؤاله بسؤال : « أتنكرني ؟ » ، فأجابها بقولٍ مستعارٍ من ناموس التسليم : « ظننت يا مولاتي أنّنا يجب أن ننكر حتّى من عرفنا ، فكيفَ لا ننكر من لم نعرف ؟ »

رمته بنظرة غضبٍ ، ولكنّ الغضبة تحوّلت ذهولاً . ولكنّها تمالكت نفسها مرّةً أخرى . قالت بحزنٍ : « إذا لم يكن النكران ، فلا شكّ أنّه النسيان ! » رمقته خلسةً، ولكنّه سرح ببصره في السهول المكسوّة بالعشب الأخضر ، على شفتيه ابتسامة غامضةٌ ، في عينيه سكينة المعتزلة الأبديّين . قالت كأنّها ترثيه لنفسها قبل أن ترثيه للأغيار : « النسيان هو البلاء الأسوأ من الموت ! »

ISBN 9953-36-612-8

